
يوسف الحيدري

حين يجف البحر

(مايس ــ (آيار) ١٩٦٧)

مطبعة النعمان ــ النجف الاشرف تلفون ٩٩٧

يوسف الحيدري

حين يجف البحر

قصص

منشورات الكلمة ـ النجف

١

تصميم الغلاف والخطوط

للفنـــان

مؤيد شكري الراوي .

التجربة

كانت زوجة أبي قاسية ، تضرب شقيقتي الوحيدة وتشتمها بفظاعة ، فتظل المسكينة خافضة الرأس وحمرة خفيفة تغطي وجهها الصغير • ولم آكن احسن حالا منها ، حيث كانت تـــكيل لي الضربات لاقل هفوة قد تبدر مني ، وهيهات ان تتكلم عند مجيء ابي الذي كان يحبها كثيرا •

مرة أرسلتني الى العمل دون علم أبي وكنت في الثانيــة عشرة •

كانت خيوط الفجر تغسل الشارع الرمادي الذي يمتــد كاللانهاية ،وجمع من الرجال يقفون عند المنعطف حيث يتلاقى

شارعان رئيسيان من شوارع المدينة الصغيرة . كانوا يعملون في تشييـد مجموعات سكنية بعيدا عن المدينـة ، حيث ينتظرون السيارات الكبيرة التي تقلهم الى العمل .

كانت كآبة صامتة ترين فوق وجوههم ، وكان يعمل معهم صبية لم يكونوا ليتجاوزوا الثالثة عشرة !

كان قلبي يدق بعنف ومشاعر مبهمة تتآكلنا وانا اقف بين الجمع المحتشد ، كنت اخاف ان يرفضوا تشغيلي ، حيث تنتظرني في البيت ضربة مبرحة ، واذا حدثت المعجزة وعملت ، فما هو العمل الذي سأكلف به ؟ .. وهل اطيقه ؟ كل هـذه الاسئلة المحيرة جعلتني أخاف اكثر فأكثر .

لقد سمعت من صديقي ـ حسين ـ الذي كان يكبرني بعامين كيف كانوا يضعون أثنتي عشرة طابوقة فوق ظهره مرة واحدة ، حيث يتقوس كرجل عجوز ويسيل منه عرق غزير وكيف انه تعثر مرة وسقط على الارض حيث تكومت عدة طابوقات فوق قدمه ، فظل ثلاثة أيام طريح الفراش الا أن ذويه أرسلوه ثانية الى العمل لانهم لايكادون يشبعون ، حدثني عن أشياء كثيرة أخرى ، كالسعادة التي تغمره قبل انتهاء العمل بنصف ساعة او أقل حيث يستلم بعدئذ الدراهم الثلاثة ، ولقد استطاع ان يفصل

ـ دشداشة ـ مقلمة ، وان يوفر بعض الدراهم للعيد •

مرت اكثر من نصف ساعة وانا اتفحص الوجوه ، وأخيرا التقيت به ، وغمرتني راحة أزالت الكثير من مخاوفي لقد وعدني ان يتوسط لي عند ـ الاوسطة خلف ـ الذي يعمل عنده منذ أكثر من شهرين •

رحت أتبعه طائعا كالكلب الوفي ،وفي ركن قصي من الساحة الكبيرة المحتشدة بالسيارات الضخمة ، راح قلبي يدق بعنف وهو يقدمني الى الرجل العملاق ، ـ الاوسطه خلف ـ كان طويلا ذا انف معقوف وعينين ضيقتين تنضحان قسوة •

حدجني بنظرة ثاقبة ثم التفت الى ـ حسين ـ الذي كان يتوسل اليه ، وأخيرا أبتسم ابتسامة كانت طيبة رغم جفافها وسمعته يغمغم من خلال ضحكة باردة :

ـ سوف نجربك •• ياصغير •• !

بعد لحظات كنت وسط السيارة المزدحمة وبعد ما يقرب من نصف الساعة أفرغت السيارة ما في جوفها ، وبعد دقائق رأيت نفسي امام بناية عالية من طابقين ، وكان يقف على مبعدة خطوات مني رجل ضخم الجثة ، صارم التقاطيع أوما الى بيده فرحت مرتبكا وسرعان ما قذف أمامي صحنا عتيقا راح يملؤه بخليط

السمنت والحصى الخشن بمسحاة كانت في يده ، وكان قدسبقني صبي يتمايل من ثقل الصحن ويكاد يسقط على الارض •

رحت اتبعه بنظراتي الوجلة وقلبي يدق بعنف ، صاح بي الرجل بقسوة :

ـ هيا •• أسرع يا حمار •• هل جئت تتنزه ؟

وسرعان ما ملأ صحني بالخليط عانيت صعوبة كبيرة وأنا أحمله فوق رأسي •

كانت ذراعاي ترتعشان وحبات من المزيج تسيل على وجهي•

كانت الشمس محرقة ، وسال عرق غزير من جسدي ، حيث راح خيط رفيع منه يدخل عيوني ، ••• اقتربت من السلم الخشبي وراحت ساقاي ترتعشان وغشيت عيني ظلمــة قاتمة ، كان على ان أصعد السلم وأناول ـ الا وسطه خلف ـ الصحن الثقيل ، والذي كان يصرخ بي ان أسرع ويشتمني ببذاءة ذكرتني بشتائم زوجة أبي !

غمرني شعور بالرهبة بحيث لم أعد ارى ما حولي ، كان السلم يمتد كالجسد الميت • وبعد جهد كبير استطعت ان أصعد درجتين فقط ، وبقيت مكاني جامدا لا أقوى على رفع قدمي •

كان دوار عنيف يشق رأسي ، واظلمت الدنيا أمام عيوني

ورحت ارتعش وانا اسمع صراخ ـ الاوسطه خلف ـ .

كنت أبكي خوفا من أن يضربني كان عنقي يؤلمني تحت ثقل الصحن الذي لم أعد اطيق حمله ، وحاولت للمرة الاخيرة ان أرفع قدمي ولكن دون جدوى ! زعق في ـ الاوسطه خلف ـ وهو يشتمني ببذاءة ، وأخيرا نفد صبره فرأيته يحمل طابوقة يريد أن يقذفني بها من فرط الغضب رميت الصحن الممتلىء وقفزت بخفة وبعد لحظات ، كنت أطلق ساقي للريح وكانت دموعي ما تزال ندية ، واحسست بأنني اولد من جديد !

١٣ ـ ٧ ـ ١٩٦٢

العلم

قبل عامين فقط كنت أعيش في عالم من الاحلام الناعمة الطرية ، التي كانت تداعب شراييني فتنتفض لها مشاعري الانثوية العميقة • كنت أعيش في سعادة غامرة تكتنفني كلما جلس قبالتي بكل عنفوانه ورجولته ، بوجهه الصلب المعبر ، بدخان سيجارته الذي كان يتصاعد حلقات زرقاء كثيفة نحو السقف ، ثم يضيع بعد لحظات لتضيع معه أوجاعي •

كانت أصابعه المتيبسة تضغط على السيكارة بعنف وكأنها تبغي أخماد انفاس كائن يعذبه بقسوة ويحيل لحظاته الى جحيم لا يطاق •.

كنت أرقبه صامتة محدقة بكل جوارحي في تقاطيعه الصارمة

الكئيبة فأحس بسعادة غامرة وأنا اتفحص كل جزء من كيانه ، كل آهة وزفرة تخرج من أعماقه ، كان يعبدني بصمت وكنت وكنت أعبده بصمت !

لم أدر انني اقتله بصمتي ، بنظراتي العميقة النافذة الى أعماقه كسهام ، مسمومة . لم يكن ضعيفا قط ، لم تكن حبات الدموع الحائرة الحبيسة في مآقيه والتي كان يمنعها عن السقوط بطريقة فذة ، سوى الدليل القاطع على أخلاصه العميق ، كنت أريده ثائرا ، هائجا كبحر تتلاطم أمواجه العالية لتمزق سفينة حائرة . ضائعة . فتضحى في النهاية مجرد الواح خفيفة تطفو على السطح !

كنت أريده أن يضمني بكل عنف الى أحضانه ، يحطمني تحت ضغط ذراعيه القويتين . ويقتل الوهم الكبير الذي في أعماقي الوهم الذي كان يتآكلني منذ سنوات عديدة ، الوهم الذي صبغ وجهي بصفرة مخيفة ، جعل أصابعه الحديدة تمزق رئتي ، الاخطبوط الذي يطاردني كل لحظة ويصرخ في بوحشية :

ــ أنت مريضة .. لاتصلحين لكي تكوني اما لاطفال صغار كثمار المشمش!! ثدياك خاليتان .. تسنحان سما ، بدل الحليب، أنت مريضة ، مريضة هل تنكرين ؟ ألم ترقدي في المصح اكثر من عام ، مجرد وهم ، لا .. هذا ليس معقولا .. كان صدرك

يؤلمك ، دبابيس تغرز في رئتيك ، الم تبصقي مرة ، وذهلت حين لمحت خيوطا حمراء شفيفة تمازج لعابك .. هل تنكرين كل تلك الصور البشعة ؟

كان الاخطبوط ينقض علي بأصابعه الوهمية كلما فكرت فيه ، كلما جلس قبالتي يحدق في تقاطيعي بنهم غريب . كنت أريده أن يحمل السيف البتار فيقطع أرجل الاخطبوط الطويلة ، لينقذني ليحملني في احضانه الى جزيرة خضراء كل ما فيها عطر واضواء وحب !

ولكن .. يالتعاستي .. كان باردا ، رغم حلقات دخانه الساخنة ، كان لوحا من جليد ، بحاجة الى صدر دافيء يذيبه ، يحيله الى دفء وحياة ، واحسست به طفلا يحتاج الى بعض اللعب الصغيرة الملونة ليلهو بها ويفرح ويظل يضحك ببراءة ! ! طفلي العزيز .. بصمته ، بدخان سيجارته .. ببرودة ، برغم كل عيوبه كان يحملني بنظراته الحنون الى السماء ، حيث النهاية السعيدة ، كنت سعيدة رغم كل شيء لانه كان انبل انسان اصادفه في حياتي الفارغة ، القاسية ، لم يكن سوى كتلة من الحنان والوداعة الصامتة لم يدر في ذهني المشوش انني سوف افقد هذا الانسان يوما ما .. افقد طفلي الحبيب ، ورجلي الطيب،

أحطم التمثال الجميل الملون بيدي ، لم أكن ادري بأنني اذبحه بصمتي ، كان يريدني له ، بكل كياني وانوثتي المريضة فلم افهمه كمـا يجب ، وكمـا كان يتوقـع ، لم ادرك ان نظراته الحنون تصيح بي :

ـ هيا .. ما بالك صامتة ؟ لماذا لاتتكلمين ؟ ربما يوجد شخص آخر . والا فما معنى هذا الصمت المدمر ، الذي لم أعد أطيقه .

وأخيرا ثار وهاج ، وكنت لا أزال صامتة ، يخنقني الاخطبوط بأياديه الشائكة ، لم أعد اطيق الصراخ .. فلقد تقطعت اوتار حنجرتي ، لم يعد لي أخيرا سوى وجه شاحب مريض ، وصدر محموم تغرس فيه الدبابيس ، دبابيس الوهم ، من يدري ، ربما هجرني بعد ان عرف الحقيقة المرة ، فهو انسان كالاخرين . . له نبله وأثامه ، تضحيته وانانيته ، قد يكون مل صمتي القاتل . وأراد ان اهتف به :

ـ هيا ياصغيري .. افتح ذراعيك لاغفو على صدرك ساعة !

قد تكون أصابته جراح عميقة في كبريائه ، كل شيء محتمل ما دام رجلا ، وما دمت امرأة . واخيرا ، لم يبق لي سوى هذا الوحش المخيف .. الفراغ .. الملل !! طفلي الحبيب ، رجلي

الذي تركني ورحل ، ليعيش حياته الخاصة ، ترى اين هو الآن ؟
فأنني بحاجة اليه رغم كل شيء •

كم أحب ان يجلس قبالتي محدقا في تقاطيعي بنهم وحب••
مجرد جلوس صامت ونظرات • لقد رحل الرجل أخيرا ودون ان
يلفظ بكلمة • • الوداع ، كلمة واحدة صغيرة اعيش على دفئها
بقية عمري الجديب ، لست ادري بماذا أصفه ، هل بالقسوة ؟
وهو الطفل البريء •• ام اقول انه كان ساذجا ؟ أم انانيا كبيرا ؟
انني حائرة •• اذ ما جدوى كل ذلك بعد ان ضاع من يدي الى
الابد • لم يبق لي سوى ان أحلم واتمنى عودته في يوم من الايام
فجأة •• ودون سابق انذار ، كما تركني ورحل ، من يدري ،
ربما يعود ، غير انني سأظل احلم •• واحلم الى ان يقتلني
الحلم أخيرا •

١٥ — ٧ — ١٩٦٢

الشبان وصرصار

ربما لن تمطر السماء ثانية ، من قال ان الارض تعطي حين ترتوي ؟ هذيان محموم . كل شيء من حولنا هذيان . اجترار صامت لحقيقة مرعبة . . نموت . فليأت هذا الضيف الثقيل بكل بشاعته . السماء ميتة ، وكذا البحر الذي يقولون انه واسع عميق ، مليء بالحيتان ! الصخور ميتة والرجال ، ولعل الاطفال هم اكثر بشاعة حين يموتون ، او حين يصنعون لهم الموت . يالها من سخافة .. هذه الاسطورة التي يؤمنون بها . حياة . تبرعم فانفتاح معطر للشمس ، ثم ذبول خريفي مقرف .. وأخيرا . . بداية الرعب ، او المهزلة !

يا للجنون . تستطيع ان نرفض الجنون بأن نقضمه كقطعة

حلوى ، ثم تتنفس هواء فيه نداوة فترتفع صدورنا لتمسها خيوط شمس كبيرة . اكبر من شمسنا بكثير ، ولكي تغوص بعد ذلك في أعماق بحر جليدي . أفكاري مشوشة . دمي يسير بطيئا في عروقي كزئبق بارد ، وحين اقذف بنفسي في قرارة بحر تقذفني الامواج ثانية ، فتلامس جبهتي حبات الرمال الساخنة . وتظل حفنات صغيرة في فمي فلا أطيق ان ابصقها ، فسقف حلقي جاف ولساني ثقيل ، لا استطيع تحريكه . الهواء بارد على وجهي ، يصفعني بقوة حيث يسيل ماء عيوني . اوراق الاشجار تتهاوى على الارض المبتلة ، صفراء كوريقات كتاب عتيق ، لتمتزج مع الوحل او تطوف فوق حفر مائية صغيرة .

أعمدة الضياء علاها الصدأ فبدت كجذوع اشجار تساقطت لحاها .

دفعت باب المقهى الزجاجي الكبير ، وفي لحظة ، كنت أعيش في دوامة من سحب الدخان الزرقاء المختلطة بضوضاء .

هذا الوجه المتآكل يمارس حريته بشكل مضحك ، فوق صينية صفراء ملأى بأقداح الشاي الساخنة ، يحمل حريته فوق صينية عتيقة منذ ثلاثين عاما .

انه بطل يقيء تفاهة عصره !

تمتم الرجل العجوز الذي بجانبي :

ـ مسكين .. انا ارثى له .. فهو لازال صبيا .. انظر اليه كيف يصيح بكل ما يملك من قوة .. وهذا الاناء النحاسي المليء بالماء ، عليه ان يملأه كلما فرغ وما اسرع ما يعطش الزبائن .. ولعل بعضهم يناديه ، لمجرد انيحس بوجوده الكزني بمرفقه وهو يسعل بقوة !

ـ أليس ضائعا .. هذا الصبي ؟

صمت .. ولم أجبه .

أصغي الى سمفونيـة الضياع ، وعيناي تمتصان صورا متراكضة مبهمة . دوار يشق رأسي ، وينبري سؤال ضخم كرأس ثور هائج ..

ـ هل انت .. حر ؟ .

فألتفت لارى الرجل العجوز وقد ضاع ! بينما كابوس ثقيل يضغط على صدري :

ـ لست أدري .. لست أدري ..

الاجراس تقرع داخل رأسي .فأدور في دوامة من الضجيج، لاستيقظ من جديد على خيوط تلامس جفوني المطبقة ، كأنها خيوط شمس خاصة ، صنعتها بيدي . صرخة الصبي قذفتني من

جديد وسط ضباب من روائح كريهة ، لقد شعرت بالاختناق .

أخرج من المقهى لتصفح وجهي ريح باردة فأحس بانتعاش.

عيناي تتسمران على ساق بضة ، صدرها يندلق بكبرياء ، تلف رأسها بأيشارب أخضر . تبتسم مزهوة ، هي الاخرى تمارس حريتها بجنون . وينبري السؤال فجأة :

ـ هل هي .. حرة ؟

ترن الاجراس في رأسي لاضيـع وسط عشرات الوجـوه المتعبة . ينقذني صوت بائع متجول من الاصطدام بعربة مسرعة ، الحوذي يهز رأسه بعد ان يشتمني ، يجلد ظهر جواديه بالسوط ، للسوط هزة في رئتي ، الحوذي يمارس حريته الجميع يعيشون مهزلة عمرها مليون سنة ضوئية !

أحس بتفاهتي ، رأسي فوقعة تزخر بالكلمات ، هي حصيلة ماقاءه مجانين حاولوا ان يبرروا تفاهة وجودهم !

الجميع ابطال تافهون ، يضحكني صرصار فوق رأسه قرنان ، يمتدان بعنف ، دون ان يلتقيا ، الا اذا رغب الصرصار في ذلك!

ثمة خطان متوازيان اسير وسطهما كل يوم ، حيث تترامى على جانبيهما الحقول الخضراء ، الخطان من فولاذ ، لست ادري لماذا لا يلتقيان لقد صنعهما مجنون حاول ان يبرر معنى الوجود !

أفرح كأي غبي ، حين تحدق في وجهي أنثى ، وأحب ان

أمارس الحب معها في الحال ! اريد ان اصرخ في وجوه الذين يملكون القوة في محو وجودي متى شاؤوا :

ـ انكم جبناء .. فأنتم تطعنون من الخلفه دائما !

أتحول الى حفنة تراب بعد ان تستقر الرصاصة في رأسي ، ياللفظاعة . الفظاعة . لقد وجدت الكلمة التي كنت ابحث عنها .. فظاعة . بوجود الآخرين اذن .. فظاعة ! جحيم .. كما يقول مجنون أحول . لقد عرف كيف يضحك على ذقون الآخرين !

الحياة فظاعة ، والموت فظاعة مركبة . وانا اعيش رغم أنفي .. وأموت كذلك ! أمثل نفس الدور الذي مثله الآخرون منذ مليون سنة ضوئية ! وينبري السؤال كرأس ثور هائج :

ـ هل أنت حر ؟ ..

أصابعي ترتخي فوق كتاب ضخم ، وترن الاجراس داخل رأسي ، هذا الدوار يشق رأسي عيناي تغطيهما سحابة كثيفة ، أحس برغبة في قطع رأسي ليضحك على الآخرون .. سآكلهم كحبات زبيب أسود .. ثم أفرغ ما في جوفي مرة واحدة .

احدق في المرآة لارى الشخص الآخر . . الوحيد الذي أخافه خوفا حقيقيا حين أكون لوحدى .. احدق فيه بعمق .. ثم أمد لساني .. واضحك !!

٩ / ٣ / ١٩٦٤

شاحنة

عيناه تغوصان في سحابة من دخان السجائر • ثم يجتر أحلام يوم ضاع في متاهات اللامعنى •• يعيش بلا غد بلا مجرد رغبة صغيرة في حياة جديدة ينسج لها تفاهات أخرى •• ربما تربطه اكثر فأكثر بالارض التي لايريد ان تمسها قدماه •

هو أبدا يرغب في التحليق كأي طائر عادي • وهو اين هو؟ تثيره قضية تقتله أخرى •• تسحقه رغبة طاغية في مضاجعة العالم ثم ليتحطم بعد ذلك كل شيء !!

عشرات من الهياكل الحية تأكل مصيرها بانسحاق مكتوم فوق مصاطب عتيقة •• هياكل تتحرك وهي ميتة •• شعور مصفوفة بأفتعال •• وشعيرات مشذوبة نبتت بالية فوق شفاه منهكة •

منذ متى كانت له انسانيته .. ما ابشعها من كلمة تبعث على الدوار . فالمهزلة واضحة بالنسبة اليه .. فهو يضع سنواته الشابة كحبات جوز بين اسطوانتين فولاذيتين فيسيل زيتها .. ويبقى التفل دون ان يثير اي رغبة في ممارسة جديدة للحياة .

ثمة أبعاد يريد سبرها ، ان يخترقهـــا بكيانه الهزيل . بكل الزبد الذي يغلف جمجمته يسميه الآخرون .. ثقافة . أبعاد يريد ان يمتصها او تمتصه .. فينسحق كذبابة تحت عجلات شاحنة .. شيء جنوني مضحك ذبابة تحت عجلات شاحنة !!

لقد رأى مرة صبيا في الثانية عشرة تحت عجلات شاحنة . كانت امه المجنونة تجمع نخاعه المتجمد داخل صحن كانت لوحة انسانية تمزق لها حتى الشرايين ثمة عانس يعرفها . تموت حسرات لضمة ذراعين قويتين ، تصبغ وجهها دائما وتجيد الابتسام للجميع .

انها تثير أهتمامه رغم نفوره منها . لقد ماتت العانس فجأة . ويقال ان وجهها كان مصبوغا عندما دفنوها . ربما كانت رغبة أمها . هو يرفض العالم اذن . ضم اصابعه في راحة يده اليمنى ضمة قوية وكأنه يسحق حشرة . وظلت الاخرى مبسوطة بيضاء .. تتناثر فوقها بقع وردية أخذ يقوس رؤوس اصابعه . فبدت كصنانير تريد ان تسحق تحتها سمكة وردية . وراح يضغط

ويضغط ويضغط حتى خيل اليه ان السمكة انزلقت من بين سبابته وابهامه ، المشبوكتين بعنف •• وبسط راحته وراح يحدق فيها ثانية • كانت فارغة ، موحشة •• وكانت يده الاخرى لا تزال مضمومة • كان شيء يسيل من عينيه • أخرج طرف لسانه وحركة حول فمه •• فأحس بملوحة • كان يبكي ببساطة •

العالم تفاهة ضخمة تعصر قلبه الذي لا يكاد يطيق ضرباته •• ضربة أثر اخرى • اعنف •• اكثر امتلاءا وانسانية • كل ضربة كدقة ناقوس • احتجاج صامت حتى للاموات • فلهم الحق ان يحتجوا بطريقتهم الخاصة •

انقطع السائل الملحي •• فلم يعد يحرك لسانه بعد •• بالامس حين تناول الغذاء لم يحس بطعمه أيضا • كان يعاني صعوبة كبيرة وهو يزدرد الخبز الجاف •

الفتاة طويلة •• ساقاها ممتلئتان •• تثيره حركاتها •• تتمايل حين تسير ولا تكف الالسنة عن تعليقات بذيئة يخجل لها • لا تكف عن الدخول الى المخازن • سمع ان صاحب أحد المخازن يتمتع بجسدها المثير كل ذلك داخل المخزن • انها مجنونة •• وهو يحب المجانين •• لذا راح يراقبها عن كثب • ويدون المعلومات عنها داخل دفتر صغير يحمله معه دائما •

سمع ان رجلا متزوجا يتمتع معها وهي تحبه بجنون .

قال الرجل مرة وهو يضحك :.

ـ يالها من مجنونة . هي تعتقد .. انني أحبها ، لست أدري لماذا تبكي بعد كل لقاء انها مريضة .. ياللتافهة هو الآخر مجنون .

ضم أصابعه ثانية وبعنف اكبر ،وراح يضغط ويضغط وكأنه يسحق حشرة وغاصت عيناه في ضباب كثيف .

لقد أحس بالعجز يدب في جسمه .. بحيث لم يعد يطيق تحريك قدميه . يشعر بميل شديد الى النوم ، نوم عميق لايقظة بعده .. فليهجر هذا العالم .. وانبسطت راحته فأخذ يمدها الى جيب بنطلونه . واحس بحرارة التذ لها . كانت جفونه قدتراخت وتثاءب مرات قبل ان تزداد السحابة كثافة امام عينيه .. ثم راح في سبات عميق .

٢١ ــ ٣ ــ ١٩٦٤

السرير

انها النهاية .. وقد تكون البداية ، ما ساوية ثقيلة ، كرصاص متجمد . القلب يتفتت الى مزق حمراء مقرفة ، وفي لحظات خاصة يكاد يروح في غيبوبة ، ثم تظل عيناه الفارغتان تمتلآن بسائل ملحي شفاف ، سائل يذيب كدارة الرصاص ، حتى يجاوزه تماما ، فيبرق ليبدو نصف شفاف ، تنفذ من خلاله خيوط الراحة الى اعماقه ، راحة مؤقتة ، فتنفرج شفتاه عن صف من العظام الناصعة .. ويبقى لسانه الوردي حرا داخل جوف أسود .. يحركه بنشوة لايظهرها !

أصابعه احيانا تغوص في الحبر ،فتترك آثارا سوداء على صفحات بيضاء ناصعة يظل يحدق فيها .. فينتشي مزهوا كطفل

فرغ من بناء هرم صغير من علب الكبريت ، في تلك اللحظات فقط يبرر وجوده .. فتمتد يده بلا وعي لتصلح من ربطته الملونة او ليدفن أصابعه للحظات داخل خصلاته الكثيفة .

وهي .. فلتظل طليقة في عالمها الملون التافه .. ربما تكون أسعد مما يتصورها لو ادركت حقيقته .. او لمستها باناملها الناعمة . قد تصبح مشاعره حينئذ متسمة بطابع الجدية ، فيمد يده نحوها لتصنع اليدان قبضة واحدة . . متشابكة . صلبة . في الوقت الذي تنغرز عيونه واعصابه داخل كيانها الانثوي الناعم، وعندها ستكون البداية .. بداية الوجود الحقيقي لكليهما .

زفر بعنف ، ثم نظر حوله ، فلم يكن أحد وارتاح قليلا .. كانت يده مزروعة في جيب سرواله وكان يحس براحة من نوع خاص وهو يمسح فخذه الصلب براحته ، وكان ثمة ما يشبهه .. ولكنه اكثر امتلاءا ، واقل صلابة ، وانتعش لتخيلاته الساذجة.. ثم ترك مكانه وراحت قدماه تضربان الاسفلت .

يوم آخر يمر وهو لايكاد ينطلق .. فجدران القفص من فولاذ .. ونظر الى ساعديه ثم تأمل قبضته .. وابتسم بهزء .. عليه ان يجد طريقة أخرى اكثر جدية .. فان الزمن لايرحم ، والايام تمر سريعة .. سيجد نفسه فجأة وقد فقد كل شيء . .

جلس على الارض البـــاردة بــلا غد •• مجرد حلم صغير يضيع فيه ولو لهنيهات ! يتذكر جيدا كيف ماتت احلامه وهو طفل •• كانت عيناه تحدقان بصمت قاتل في لعب الاطفال الآخرين • • سيارات صغيرة خضراء •• وزرقاء • طائر من صفيح ملون • • كرات ملونة •• واشياء كثيرة لاتزال داخل جمجمته •• هويحب الالوان بهستيريا ، وراحت عيناه تمتصان الوان الشارع ، زجاجات تضيء بعدة الوان ثم تنطفيء ثم تضيء •• وتحسس ربطته • • وكانت ملونة •• والآن ؟

تساءل ولسانه ثقيل في جوف فمه •• هل هو سعيد حقا ؟ !

لقد امتص كل ما فيها من سحر وانوثة ، بعد ان أحترق من أجلها سنوات • كان يرتجف لمجرد ذكر اسمها •• كانت بالنسبة اليه شيئا نادر الوجود ، زجاجة ملونة • هشة ، تتحطم لاقل صدمة •• لذلك عاش الاعوام ، ويداه تقبضان باحتراس جنوني الزجاجة الملونة ، وكان يحس حرارتها تحرق يديه فلا يدعها تسقط رغم ذلك • والح السؤال عليه •• هل هو سعيد حقا ؟ ! ••

وقلب شفتيه ساخرا •• السعادة ؟ • لحم دافيء يمتد على طول جسمه في سرير أكثر دفئا •• شفاه تتماسك بوحشية ويلتصق الجسدان ، يذوبان في جسد واحد •• ثم •• ثم ماذا ؟

أحس ببرودة تسري في ساقيه ، ارتعش على أثرها ثم انزرع في أقرب مقهى ، وراح يتأمل وجوها مملة ، ودخلت اذنيه أسراب من الانين والنواح يسمونها موسيقى شرقية . غاصت عيناه في لوحة معلقة أمامه . كلاسيكية . مفرطة في ألوانهـا الباهتة ، لم تكن لتخلو من جهد بذله انسان في لحظات ادعى بأنه يبرر فيها وجوده .. ولاحت له صورة الفنان من خلف الالوان الباهتة .. كان وجهه النحاسي .. طويلا .. زادت من طوله ، لحيته البيضاء المنسربة على طول وجهه ، واحس برثاء لهذا الكائن الذي يحتضر .. كانت عيونه مغمضة . وبين لحظة وأخرى ينتفض كطائر جريح ثم لايلبث ان يستكين . لقد أحب الرجل كثيرا ، وليس يدري لماذا شعر بالغيرة منه . كانت بجانب سريره المتداعي أدوات الرسم .. وامرأة عجوز .. محمرة الجفنين ، تغمس طرف قماش في الماء وتمرره بهدوء فوق شفتيه اليابستين ، فكان ينتفض أثر ذلك ، جلس بجانب الرجل الممتد بصمت وراحت أصابعه المرتعشة تمسد لحيته الطويلة ، فأحسها ناعمـة كفروة قطة ، ثم أخرج طرف لسانه . ليغمسه في سائل ملحي راح يسيل من عينيه .. واهتز كيانه كله .. كانت عينا رجل ابله تغوصان في وجهه ، وتلفت حوله كان صاحب المقهى يحمل فوق وجهه تعبيرا

غريبا •• ويحدق فيه ببلاهة ، مسح عينيه بعجالة وقـد احمر خجلا ! ••

كانت أضواء الشارع الملونة تبعث في أعماقه راحة غريبة •

سيظل كعادته يضرب ارض الشارع بخطواته المتعبة الى ان يغوص في سريره الدافيء ثانية ليحتضن بالية ممجوجة جسدا يمتد على طول السرير !!

٢٣ — ٤ — ١٩٦٤


هروب

نصف ذراع مقطوعة ، مطاطية اصابعها متشابكة كأصابع طفل في يومه العاشر ..

الذراع ملساء بلون اللحم الطازج ، الكلب يمـد بوزه فيشمها ، يحملها بأسنانه ثم يتركها ويهرب .

الكلب اصفر مبقع ،العالم أصفر ، يرى الوجوه صفراء وقد تساقط عنها اللحم فبدت جماجم عارية .

وجه شاب ذو اسنان صفراء تساقطت شعيرات رأسه من الامام ، هذا الانسان سيموت بعد ثلاثة اشهر .. ورغم ذلك فهو يضحك ببلاهة لايزال يحدق فيوجوه المارة ،ربما يتخيل جماجمهم سيكون أحدهم بعد فترة قصيرة . الاموات يسيرون في الشوارع

وعظامهم مشدودة يقترب منه هيكل وقد رفع يده يحييه بأبتسامة خائفة ، حامل الوجه ينظر في ساعته كيف لايخاف ..

وتمتم :

ـ انه بطل دون ان يدري .. لو كنت مكانه لانتحرت .

الشارع يخلو تماما أغنية طويلة تنساب عبر الاسفلت لتدخل اذنيه ، ماسح أحذية عجوز يحمل خبزه في زجاجات ملونة متراصة على جانبي صندوق خشبي . حامل الوجه يشير اليه ، حذاؤه يلمع ، عيناه تضيعان داخل شعيرات الفرشاة ، ماسح الاحذية يبتسم هو الآخر يبتسم ابتسامة صفراء ،يشعر بزهو لانه لايزال قويا لايشكو من شيء سوى .. الصفرة .

يوم آخر يمر بطيئا ، عيناه تمتصان بريق صفحة بيضاء يخط فوقها بضعة سطور ، صديقه الموظف العجوز يسأله كالعادة وهو يجيب كالعادة أيضا :

ـ بعض المراجعين لايطاقون بالمرة .. انني أكاد انفجر ..

يضحك الموظف العجوز وهو يردد :

ـ لابأس .. قليلا من هدوء الاعصاب ، لست ادري ما الذي إصاب اعصابكم .

المراجع شيخ ذو وجه اصفر ، لقد اخذ الدوار يشق رأسه،

يصرف المراجع بسرعة مذهلة ودون ان ينظر اليه وقع أقدام الشيخ يضيع وسط ضجيج غامض .

يحس براحة ، يده تمتد لتصلح رباطه الجديد ، يحدق في ساعته ثم يغمغم بلحن يحبه .

خطواته واهنة على الرصيف خيوط الشمس قوية يتلفت كثيرا اثناء سيره ، فهو يريد ان يبتلع كل شيء الاشجار ، السيارات ، الابنية ..

بدأ يحس بالدوار ، ثمة قطعة معدنية صفراء تلمع فوق باب خشبي . عيناه انغرزتا في القطعة رغما عنه القطعة تبرق والدوار يشتد يخفض رأسه خطواته تثقل ، لايرى شيئا ، يتداعى ثم يضيع .

يوم جديد آخر طويل اكثر مما يجب لقد كانت الصدمة عنيفة شرطي المرور كان انسانا طيبا فلولاه لحدثت اشياء خطيرة .

سيظل يمشي خافض الرأس يحدق في حذائه دافنا يديه في جيبي سرواله . سيضحك عليه الآخرون ، ربما ظنه البعض عاشقا سوف لن يهتم على اي حال ، سيعيش كما يحلو له .

تذكر الذراع المقطوعة فجأة ، نصف ذراع مطاطية أصابعها

أصغر من أصابع طفل في يومه العاشر مشبوكة بعنف وكان الكلب يمد بوزه فيشمها ثم يحملها بأسنانه ، يتركها فجأة ويهرب .. هو الآخر يود لو يترك كل شيء .... ويهرب .

٢٧ — ٣ — ١٩٦٤

الأخطبوط

سأنتهي فجأة . انا أعي ذلك جيدا ! ويخيل لي بأنني أكاد أعرف الوقت بالضبط .

في يوم من أيام العام القادم يوم جمعة ! تكاد تكون خاصة ضخمة ، وتكاد الزحمة لاتدع للمرء أن يحرك قدميه بصورة طبيعية ، عليه أن ينط كجندب صغير لكي يعبر الشارع ، او يمرقه كسهم ينطلق من قوس مشدود بأحكام . ولربما لن أشعر بالألم كثيرا ، قد يبالغون حين يصفون الموت ! مجرد خرخشة في عظامي ، ثم انسحاق تام ، بحيث يتحول جسدي الى عجينة حمراء .. وسأظل للحظات أحدق في صور مشوشة ، او تطرق مسامعي أصوات مختلطة مبهمة .. ثم ينتهي كل شيء !

ثمة رغبة صغيرة تغوص في داخلي ، وأكاد أجبن من أن أصرح بها.رغبة هي كل شيء بالنسبة لي ، لو بقى لي وجود الى يوم الجمعة المشهودة . الرغبة تكاد تنطلق من أعماقي لتنطح جسدي .. فأظل أهتز كسلك نحاسي ، ثم لاشيء بعد ذلك .

القضية اذن : مجرد اهتزاز لكنه رائع ومغر ، ربما أروع من أهتزاز الاطارات الضخمة التي ستستقر فوق جسدي الضئيل.

رغبة تثور حين أروح في تهويمة روحية ، فأتجرد من كياني، لاملأ عيوني بالاحلام الساذجة ، لتبق اذن مخنوقة ، تمتصها كرياتي .

ماذا يحدث لو بقيت حبيسة ؟ سوف لن يهتز سقف الغرفة على الاقل . سيظل كل شيء عاديا . ستشرق الشمس وتغرب كالعادة مجرد ذبابة تطارد أخرى ، عبث لذا يجب أن لايكون لموتى أي تفسير غبي .

هي الاخرى طرف ثان في القضية ، الطرف السائب الذي يرتخى لحظة بعد أخرى الى أن يغوص في العدم !

كيان هزيل . لحمي حتى الموت . كيانان في واحد ، ثم لاشيء بعد ذلك ، سأكون قد بررت وجودي .. يا للسخف يا للسطحية !

كلنا نعوم على السطح كبالونات هشة ملونة • لو كنت فقط أجيد العوم • اذن لاحسست براحة غبية • ولكنني أغوص دائما نحو القعر ، حيث الظلمة والتمزق ؛ ثم الضياع •

يجب ان أركل كل شيء بقدمي بعنف ، فلتظل قبضتي قوية، مدمرة •

شعور مقرف يتأكلني من الداخل : سينتهي هذا الكيان اللحمي في يوم ليس هو ببعيد ما دام محددا •

ووجهي ؟ •• ما الذي صبغه بصفرة فاقعة ؟

صفرة هي أقل أثارة قبل الدوار •• الدوار •• يالها من لحظات مدمرة تنبت أرجلا وهسية كأرجل الاخطبوط ، وتظل تشد بعنف حتى أضيع • أغوص الى القعر حيث الظلمة والتمزق وبعد ذلك الضياع ، ولكنه ليس أبديا وهذا مما يعذبني أكثر •• أنا أحب الدوار بجنون ، فقط حين يخنقني بشكل نهائي !

مرة أخرى اذرع الشـــارع الذي لانهايــة له ، وانظر في الواجهات الزجاجية • صدمني الاخطبوط •وكان هائلا ، ذامليون ذراع • كانت عيونه كبيرة وكان فمه حفرة سوداء وسط جسده المطاطي ، وأحسست بأنني أقع في الحفرة • كانت الاذرع ••• تعصرني بقوة بحيث سمعت خرخشة عظامي اليابسة ، تناثر لحمي

على الاسفلت ، فأصبحت هيكلا عاريا . وكانت للاسفلت رائحة دبقة . احساسي بالانعزال يزداد عنفا يوما بعد آخر .

لست أدري لماذا أغضب .. حين يحدقون في وجهي بعناد بغلي ، هم معذورون على أي حال .

انهم يعومون على السطح وأنا لا أجيد العوم . هذا هو الفارق الوحيد بيننا . مجرد خيط رفيع بدأ يتقطع . خيط هش كنسيج عنكبوت . عنكبوت . ألست عنكبوتا أنا الآخر ؟ ولكن دون نسيج . ياللمهزلة . الخوف يهصرني ، حتى يكاد يسيل ما في جوفي من دم وأشياء أخرى أنا ارتجف فأشعر بهبوط في القلب . الموت شيء مخيف ، أنا لا أريده . أحب ان أعيش ولو بدوار يشق رأسي بين يوم وآخر .

أحب ان أكون عنكبوتا بلا نسيج . ولكن لاعيش ، ولو بلا معنى ، بلا أية لذة ، أنا أرفض اللذة . أرفض كل شيء حتى هي .. أرفضها . أركلها بقدمي بعنف ، فقط لاعيش يوما آخر ، ولو مليئا بالهواء لانقلب الى بالونة بـلا لون . . لاعوم . . ما ألذ العوم . فأنه على الاقل يجعلني خفيفا أتحرك بسهولة وسرعة . ما أبشع الجمود . ما أفظع ان أكون صخرة تقبع في ركن مهمل

الف عام دون احساس ، دون حركة ولو تافهة .

أنا أكره القعر . أريد ان أعيش الف عام ، اريد أن أعوم

ان اعوم !

٢٠ — ٤ — ١٩٦٤

النافذة

•• ونفث دخان سيجارته وراح يعيث بشحمة أذنه ، وهو ليس يدري لماذا يداعب شحمة اذنه كلما تبلبلت افكاره ، اوراحت تتركز تدريجيا عليها ••

وتمتم :

ــ سأنتهي منها في يوم من الايام •• وبطريقتي الخاصة !•

وأحس بتفاهة العبارة •• وبأنه عاجز •• وجبان •

القى نظرة طويلة على عصام •• كان قد كبر بما فيه الكفاية •• أو هكذا خيل اليه ، فهو لم يعد ذلك الصبي الهادىء • • حيث أخذ يعي القضية جيدا ، ولربما اندفع نحوي بجنون وراح

يضرب صدري بجمع يديه .. يااللمهزلة . . قد يقتلها فجأة !
ورنت الكلمة في رأسه كجرس كبير .. من يدري . . ربما هو أصلح من يقوم بالدور ؟ ولكن ما ذنبه هو ؟ . فانا وحـدي المسؤول . . لقـد كنت أنانيا . . حين اقتلعتها من أحضان الرجل الذي كانت قد اختارته .. أغريت أسرتها بالنقود ، وظننت انني المنتصر .. لقـد خسرت في الحقيقة اسمي .. وكسبت جسدها ! .

الرائحة تملأ الانوف . دبقة . فيها عفونة الجثة المتهرئة .. أرى الاصابع حادة كسكاكين تغرز في جهي .. انا جبان . . جبان ! .

وراح يصرخ بعنف .. ودفن رأسه بين راحتيه .

كان عصام واقفا كعمود صخري ، وقد غمرته موجة من الانذهال وتمتم بحزن :

ـ انها لم تعد بعد .. لست أدري لماذا تتزين بهذا الشكل المخزي .. وفي كل وقت ؟ !

كان شعاع باهت ينبعث من عينيه وراح يعبث بشحمة اذنه ، كان اضعفه من ان ينهي القضية ، فرك راحتيه ، فأحس بحرارة ارتاح لها ، وقلب شفتيه ثم راح في غفوة لذيذة ..

فتح عينيه وهو يزفر •• وتمتم :

ـ كم احبها •• اللعينة •• في الحقيقة •• لا اطيق الحياة بدونها •• ربما وضع هو حلا للقضية • فلقد بدأ يعي بسرعة عجيبة •

كانت عينا عصام تأكلان قضبان النافذة الحديدية ، وألم طاغ يمزقه من الداخل •• وردد في سره :

ـ كم بدأت أمقتها •• وأمقته •• ان عدنان أهانني بشكل صفاقة وأمام جمع غفير من التلاميذ حين قال أشياء مريعة عنها •• كان على حق اذن •• سوف أعرف كيف اؤدبها •• كم أكرهه فهو يثير الاشمئزاز بصمته القاتل • لم أعد احس بوجوده •• انه جبان •• جبان •

دفن رأسه الصغير بين راحتيه ثم ردد بغضب :

ـ لماذا تفعل مثل هذه الاشياء الشائنة •• لماذا لاتفكر في على الاقل ؟ ألست ابنها ؟ ! •

هزته نسمة باردة فأخذ يعب منها بعمق وتمتم :

ـ سوف أراقبها جيدا •• ! وارتاح للفكرة ، ولا يدري لماذا ابتسم • كان يسير خلفها بحذر شديد ، ولم تكن لتراه •• كان يحتمي بالجدران واعمدة الكهرباء ، وكانت تسير وهي تتمايل

كمراهقة .

أحس بتعب شديد .. فهو يسير منذ ساعة ، واندهش كيف لم تتعب وردد :

ـ لقد بدأت انفجر .. فهي تكلم الرجال بكل صلافة .. هذا الحانوتي .. الضخم الجثة .. كم اكرهه .. لماذا وقفت عنده طويلا ؟ .. ماذا قال لها ؟ . . ياللوقاحة ، فقد لوحت له بيدها دون خجل وفي شارع مزدحم .. كم أود لو أذبحها الآن ! وهذا الآخر .. انه شاب انيق يقف امام مخزنه بكل كبرياء وتحد .. هو الآخر كلمها .. انه يبتسم بوقاحة .. بوقاحة .. كم أود ان أغرز سكينا في عيونه .. لو كنت فقط كبيرا ! .

وأحس بميل شديد للبكاء .. لقد انتهى الشارع أخيرا .. ها هي ذي تتلفت خلفها لاول مرة ولكنها .. لحسن الحظ لم ترني ! .

كان يلهث .. ولم يكن قد تناول شيئا منذ الصباح ، فقد رفض ان يأكل شيئا ، وظل يحدق في عينيها بغضب .. ولم يذهب الى المدرسة .

استند على جدار عتيق ثم مد رأسه بحذر ، ورآها تدخل بيتا في نهاية الزقاق ودون ان تطرق الباب !

كان قلبه يدق بعنف ، وغمره خوف أرتعش له كيانه الصغير

ثم راح يحدق في السماء ... كانت واسعة . عريضة . تتناثر فوقها تتف من الغيوم البيضاء .

لمح عصفورا يحط على سلك الكهرباء وهو يتلفت يمنة ويسرة ويحرك رأسه الصغير . جذبه المنظر .. وليس يدري لماذا تمنى ان يكون عصفورا .. !

طار العصفور فجأة بعد ان قذفه طفل بحجارة أخطأته ! .

عاود التفكير ثانية وأحس بثقل في صدره وكأنه يحمل صخرة ضخمة .

تحرك ببطء وحذر وحزن عميق يمزقه من الداخل .. تمنى لو يصرخ بأعلى صوته فيبدد السكون الرهيب الذي يغرق فيه .

كان الزقاق خاليا .. شعر بخوف وانقباض .. كان غاضبا .. يكاد ينفجر في أي لحظة .

وقبل ان يندفع نحو البيت ليرى كل الفظائع التي رسمها في ذهنه .. تسمر فجأة في مكانه ، حيث خرج رجل ضخم الجثة من البيت .. كان كثير الشبه بالحانوتي الذي رآه قبل أكثر من ساعة .

كانت على وجهه المنتفخ ابتسامة مقيتة ، أحس بها كنصل

سكين يغرز في قلبه وازداد حزنا وغضبا •• كانت الابتسامة بليدة وقحة ، وشعر بميل شديد الى ان يمزق الرجل بأسنانه وأظافره •• ويبصق في وجهه •

كان الرجل يتقدم نحوه ببطء ويزداد ضخامة . حتى خيل اليه بأنه ليس رجلا بل شيئا آخر لم يره من قبل ! •

جمد في مكانه وظل يحدق بغضب في وجهه المنتفخ • كان وقع خطواته ثقيلا يشق سكون الزقاق ، شعر به يمشي فوق صدره حتى يسحق عظامه لم يعد يحتمل بعد كان الغضب يمزقه والحزن يأكله بضراوة ، وليس يدري كيف اندفع بجنون نحوه وراح يضرب بطن الرجل وصدره وكل جزء من كيانه الضخم وهو يصرخ :

ـ أيها الحقير •• لماذا فعلت ذلك ؟ •• انها أمي •• أمي •• لماذا فعلت ذلك ؟ أنا أكرهك •• اكرهك •• أنا أكرهها • • اكرهكم جميعا •• فأنتم جبناء • جبناء !!

وراح يبكي بحرقة •

وكان يبدو صغيرا جدا في أحضان الرجل الضخم الذي كان يلفه بذراعيه • في حنان كبير •

٢٥ — ٤ — ١٩٦٤

الفوهة

لم تكن عيناه الباردتان لتفارقا اللوحة المثبتة على الجدار .
كانت غامضة . مجرد خطوط ملتوية فوق دائرة بيضاء تخترقها اعمدة مثلثة الرؤوس ، حادة . وعلى مسافة من الدائرة البيضاء ارتفعت خطوط صفراء ممزوجة بخضرة قاتمة توحي بالكآبة ! .

راح الشيخ يعبث بأصابعه الجافة بشعيرات لحيته الكثة ولم تكن عيناه لتتحركا ، كانتا مفتوحتين .. ثابتتين ، تمتصان كل جزء من اللوحة .

وقف بجانب الشيخ ، شاب ، هزيل . صارم التقاطيع ذو حاجبين كثيفين وعينين نفاذتين .. يسرح شعره بشكل يثير الاتباه .

التفت الشيخ اليه فجأة والتقت عينــاه بعينيه المتسائلتين وتمتم :

ـ اعتقد انك اصبت جانبا من الحقيقة .. وليس الحقيقة كلها .. هي مقولبة حقا .. أما كان اقرب الى الواقع لو اسميتها .. حضارة من فخار مثــلا ؟ ! ابتسم الرسام وهو يحني رأسه قليلا وأجاب :

ـ مقولبة .. هي اكثر عمقا .. كما اعتقد .

صمت لحظة ثم اضاف :

ـ أرجو ان توافقني .. تأمل الشيخ اللوحة ثانية ، وراح في شبه غيبوبة خيل اليه بأن لايقظة بعدها .. وبعد فترة من الصمت .. التفت اليه وصافحت عيناه وجه الرسام .. وتمتم وهو يبتسم :

ـ هو اكثر عمقا .. انت على حق .. ربما هو حكم الزمن ، وقلما خانتني عيناي .. اذ لم المح الفجوة العميقة التي تمتد من قمة اللوحة حتى نهايتها .. والتي يخيل للمرء انها الطريق .. نحو العدم !

ابتسم الرسام بخجل وهو يحني رأسه لهذا الاطراء ، وقبل ان يتحرك الشيخ مد يده المعروقة فشعر الآخر بحرارة تلفــح

راحته ، وابتسم للرسام ابتسامة لم ير اجمل منها .. كانت تعبيرا عن الارتياح الحقيقي . وأضاف وهو يجر قدميه ببطء :

ـ ارجو ان ارى لك اعمالا أخرى وراح يسعل بعنف .

أجاب الرسام بحماس ظاهر :

ـ سأريك اعمالا كثيرة . حال انتهاء المعرض الحالي !

كانت الغرفة مربعة تتناثر على جدرانها لوحات مبقعة بالزيت وأخرى مجرد خطوط هستيرية ، يحار المرء في حل رموزها الغامضة ، وفي الوسط كانت منضدة صغيرة تناثرت فوقها علب الاصباغ المختلفة ، وفي الجهة اليسرى وعلى مقربة من النافذة الوحيدة كانت لوحة قطعة قماش بيضاء راحت تقطعها خطوط سوداء متناثرة .. وفي منتصفها .. فتحة هلالية تزداد قتامة كلما حدق المرء فيها .. مد الشيخ اصبعه فجأة وقال بنبرة حادة :

ـ هنا الحفرة . العدم . لاشيئية رهيبة .. كلكم يائسون لحد التقزز .. لماذا .. لماذا ؟ !

كان قد استند على الجدار وقد شحب لونه ، وبدأ يسعل بعنف .

غمر الرسام شعور غريب . وراح يحدق في الشيخ بانذهال .. وبعد فترة من الصمت الثقيل .. أجاب بنبرة طبيعية :

ملاحظة : لقد تقدمت الصفحة ٦٩ على الصفحة ٦٨ فيرجى الانتباه لذلك ..

بهدوء :

ـ نعم يا ولدي •• انا أكذب •• كلنا نعيش كذبة ضخمة •• والفرق الوحيد بيني وبينك هو انــك تعيش القضية دون احساس بها •• أما انا ، فأكاد امتصها بملء جوارحي •• ثم أحدق في المرآة لارى الطريق الى •• الحفرة !

ساد صمت عميق قطعه الرسام ودون ان يرفع عينيه الى وجه الشيخ وتمتم :

ـ أنا اسفه •• يا سيدي ، لقد كانت ثورة عاطفية •• ارجو ان تسامحني •

كان خط من سائل شفاف يقطع تجعيدة وجهه •• ارتعش الرسام وهو يمتص بعينيه دموع الشيخ بألم :

ـ انت على حق •• فنحن اجبن من أن نواجه الحقيقة •• أن نحدق في المرآة •• ياللمهزلة •• المرآة •• المرآة • !

كان الرسام منشغلا في غرفته يرسم لوحة مثيرة ، كان قد بدأها منذ اكثر من شهر • منذ ان ترك الشيخ على وضعه المؤلم •• نظر الى ساعته وتذكر موعده الهام حيث وعده الشيخ ان يريه بعض القطع الفنية ، تألم كثيرا وهو يردد بأسف :

ـ كيف نسيت الموعد ؟ • كان على ان ازوره لاستفسر

ـ العدم .. لماذا نخاف الى هذا الحد ؟ !

استعاد الشيخ انفاسه .. وبعد لحظة صمت تمتم :

ـ أنا مجرد خيط رفيع يتسلق حافة الحفرة .. الخيط الذي سينقطع فجأة .. رغم ارادتي ! .

وأشار بيده الى خط ينزلق من قمة اللوحة ويتراخى عند حافة البقعة السوداء واضاف بنبرة غاضبة :

ـ هنا تتركز الرغبة الجنونية في مضاجعة العالم . ثم البصق عليه !

لاحظ انفعال الرسام الشديد ، فراح يضحك وهو يربت ظهره ربتة صغيرة وقال .

ـ الخوف يتجسد هنا بالضبط .. أيها الفنان .. ولاتزال عضلاتك قوية .. هنا المأساة . انهزامية مثيرة لماذا ؟ !

شد الرسام على شعره وصرخ في جنون :

ـ انت تكذب .. ايها الشيخ الفاني .. انك ترتعش لأن الحفرة قريبة منك !

وصمت الشيخ وقد خفض رأسه .. خيل الى الرسام بأن قوالب من الثلج تسحقه . تجمد الدم في عروقه الثائرة .

رفع الشيخ رأسه وراح يحدق في وجه الرسام بكآبة وقال

عن صحته .. مسكين كم تغير .حتى انه اغمى عليه وهو يزورني للمرة الثانية . وكان السعال يمزق صدره الواهن .

أرتدى ثيابه على عجل ، . مرت فترة طويلة ودون ان يفتح الباب ، ساوره قلق شديد وتأكد من العنوان جيدا .. ثم قرع الباب بعنف ، بعد فترة قصيرة ، فتحت الباب عجوز في حوالي الستين ، ترتدي نظارة طبية سميكة ، حدقت فيه مستفهمة ، وفاته ان يلاحظ السواد عليها ، وبعد ان قرأت القصاصة التي قدمها اليها .. رسمت على وجهها المجعد ابتسامـــة غامضة لم يفهمها .

كان مضطربا .. تهالك على أقرب مقعد وراح يحدق في المرأة العجوز التي دفنت رأسها بين راحتيهـــا .. كانت تنشج بمرارة .. غمرته رجفة ثم تأمل ملابسها وراح يمطرها بسيل من الاسئلة :

ــ متى حدث ذلك .. وكيف ؟ .. اوه . كان على ان لا انسى الموعد .. لست ادري كيف حدث كل ذلك ! .

أشارت اليه بالصمت ثم أخرجت بيد مرتعشة قصاصة من جيبها وقدمتها اليه وهي تردد بأسى :

ــ لقد كان في شوق كبير لرؤيتك .

وراح يقرأ بشفاه مرتعشة .

صديقي الفنان .. الطيب ..

يؤلمني ان اودعك .. ودون ان أراك .. ارجو ان تدخل غرفتي التي احتفظت فيها لك بقطعة فنية . تجسد فلسفتي . . واتمنى لو استطعت ان تفهمها جيـدا .. وان تكون أقوى من الآخرين . وداعا . !

كان وجهه شاحبا كوجه ميت .. وراح يحدق في وجـه العجوز الحزينة بتساؤل . مرت فترة طويلة من الصمت قطعته العجوز وهي تتمتم بصوت ضعيف :

ــ هنالك الغرفة .. خذ المفتاح . كن حذرا . وسألحق بك بعد قليل !

كانت الغرفة مربعة .. صغيرة . ففر فاه دهشة وهو يحدق في اللوحات المتناثرة هنا وهناك ، على الجدران وفوق الارض ، كانت أروع ما شاهد في حياته من آيات الفن الحقيقي ، وجلبت انتباهه لوحة .. كانت مغطاة بقطعة من القماش الابيض ، تقدم منها بخطوات مرتعشة وكان قلبه يدق بعنف وتذكر العجوز وهي تردد :

ــ كن حذرا ..

التفت خلفه .. كانت العجوز واقفة كصنم عتيق وابتسامة مخيفة على وجهها المجعد .. مد يده المرتعشة وازاح الغطاء بعنف .. تقلصت عضلات وجهه ، واتسعت عيناه لما يرى .. كانت فوهة مفغورة .. قاتمة تقطعها خطوط صفراء وحمراء .. وخضراء قاتمة ، تسمر في مكانه ..

كانت الفوهة تتحرك وتتجه نحوه ، وكانت الخطوط تتحرك بسرعة غريبة ، كان دوار فظيع يشق رأسه ، التفت خلفه بخوف — كانت العجوز تضحك بعنف ، بحيث بدا فمها كحفرة غائرة ، راحت تتسع اكثر فأكثر ، ادار وجهه نحو اللوحة .

كانت الفوهة تتحرك وتتسع شيئا فشيئا .. صرخ صرخة حادة ثم سقط على الارض ! مرت فترة طويلة قبل ان يفتح عينيه ثانية .. كانت العجوز تبتسم كعادتها ، ذهل وهو يحدق في وجهها المتغضن .. كانت الابتسامة حلوة .. تختلف عن تلك التي لمحها قبل ان يغمى عليه .. واستطاع ان يلتقط بصعوبة كلماتها الاخيرة :

ألم أحذرك من قبل يا ولدي .. انت ايضا كالآخرين .. كان سيتألم كثيرا لو راك هكذا .. فلقد كان يحبك كثيرا .. كان معجبا بك ، ولكنك ، أيضا .. كالآخرين .. كالآخرين !

٦ — ٥ — ١٩٦٤

الحب

الغرفة بملايين الجدران ، كثيفة كصفائح من حديد ، وكان هو الآخر كثيفا بملايين الرغبات المخنوقة .

كانت أصابعه تضغط وتضغط حتى خيل اليه انها ستنخر نخاعه وتفتته فينسحق الى عجينة . وضحك للفكرة . ماذا سيحدث حينئذ بالضبط ؟

هـل سيعيش احساسا معينا ذا أبعاد ؟ .. وقلب شفتيه ساخرا وتمتم بسخرية .

: ـ يعيش .. يعيش ..

سيكون أكثر انفتاحا مع ذاته ، فهو يغار من الكلب الذي

لايكف عن النباح ، يلتذ لسماع النباح ، الكلب اكثر واقعية في ممارسته لحريته !

راحت أصابعه تبرم شعيرات شاربه الكث ، بينما راحت عيناه تحدقان في نقطة لامرئية . يالها من تفاهة يشربها بجوارحه دون ان يبدى مجرد رأي فيها .

أخرج قلمـــه وبـــدأ يخط بضعة سطور لايفهم هو نفسه معناها ، فكل ما يحيطه أضحى بلا معنى ، فحياته جوفاء ، هلامية ، ذات رائحة دبقة ، وقلب شفتيه برما وتنهد بعمق .

أشياء جد غريبة تبرر وجوده الهلامي ، قطة منسحقة تحت عجلات ناقلة ضخمة طفـل ينمو بأعوجاج فتتقوس سيقانه من الخلف ، فيضحك عليه الاطفال . وحدق في السقف دون ان يدري .. لماذا ؟ ..

كانت أذرع المروحة ، ضخمة وثمة ذبابات تجمعت فوقها على شكل نقاط سوداء وضحك بعنف .

كم يود لو يرجع عشرين عاما الى الوراء مجرد طفل يحلم بأشياء ملونة .. كم كان سعيدا وهو يحدق في تقاطيع أبيه الذي كان يحدثه عن العفاريت وعن الحداد الفقير الذي وقع في حب

بنت الامير فأختطفها رغم الحراس المدججين بالسلاح ! كان يحس بوجوده الحقيقي أحساسا ذا أبعاد ، كان وجوده من دم ولحم وضحكات ودموع أحيانا .

أحس بالجدران تتحرك حتى تكاد تسحقه ، فتذكر القطة ، راح يداعب شعيرات شاربه الكث وليس يدري لماذا أحس برغبة طاغية في البكاء .. وبعد عشرين عاما .. هو خائف اذن ! أخذ دوار عنيف يشق رأسه فأرتدى سترته ، وبعد دقائق كانت قدماه تضربان الشارع الاسفلتي ،بدأ كعادته يحدق في المعارض الزجاجية الانيقة التي تمتد على طول الشارع المزدحم .

جفل أثر ضربة خفيفة على كتفه ، وانفرجت شفتاه بصعوبة عن أبتسامة باردة . كان صلاح بوجهه الشاحب وعينيه المنطفئتين، وردد في سره :

ـ مسكين هذا الشاب ، هو الآخر تائه وينتهي في القريب نهاية مفجعة ، لن ينساها لسنوات طويلة ، يأكله الداء من الداخل ولكنه يتظاهر بالقوة بل احيانا ينكر بغباء من انه يعاني من شيء ما أبشع الصفرة على وجهه.القرحة الخبيثة . لقد تحول الى قشرة ليمونة .

كان صلاح يأكله بعينيه النهمتين وتمتم .

ـ : لازلت كما تركتك في المرة السابقة •• قليــلا من التفاؤل ياصديقي •• حدق فيوجهه بغضب مكتوم وكأنه أهانه وردد في سره :

ـ ياللمهزلة ••• قشرة الليمون تسخر مني •• لقد بدأت أضيع اذن •

ربت على كتف صلاح وهو يبتسم بأنفعال ظاهر ، ثم ضاع وسط الزحمة • كان يسير بأستقامة وقد رفع رأسه وراحت عيناه تشربان ملايين الصور بهلوسة ، كان خفيفا كبالون مطاطي يطير فوق الرؤوس ، لم يعد ليميز الاشياء بعد •

تسمر بغتة أمام ضوء أحمر ساطــع وراح يقرأ دون وعي الحروف الزجاجية ••• علي •• بابا •

وبعد لحظات كان امام طاولة بيضاء مربعة ، والزجاجــة السوداء منتصبة بتحد ، راح يتأمل الفقاعات وهي تتصارع بعنف لتصل قمة الكأس فتسيل بعد ذلك على الغطاء الابيض ، وتذكر صديقه صلاح ، وهز رأسه ثم عب الكأس في جرعتين متتاليتين ثم نفث دخان سيجارته •

سيقان ترتفع وتهبط بسرعة جنونية ، سراويل ملونة ورؤوس

احذية انيقة ، ثم ضحكات سمجة •

أحس بالاختناق ولكنه لم يدر لماذا يترك الصالة ، كانت تحدق في وجهه وابتسم ببرود لم يعد ينظر اليها ، راحت أصابعه تبرم شعيرات شاربه الكث وتمتم :

ـ هي الاخرى خائفة ، سيتساقط اللحم عنها يوما ما •

الرعب حيوان مطاطي ذو أسنان فولاذية •• تعيش • • تعيش •• مسكينة •• قشرة الليمون تعيش ، الطفل المقوس الساقين يعيش ! •

أستيقظ على صوت تصفيق حاد •• كانت انثى شبه عارية تتلوى كأفعى تدخل رأسها بين ساقيها ثم تخرجه من الطرف الآخر بعد ان تتحول بهيكلها المطاطي الى ما يشبه الحيوان ! وردد بخوف : ـ

ـ الحيوان المطاطي ، ذو الاسنان الفولاذية •• الرعب •

وترك الصالة وهو يرتعش وراح يقطع الشارع الطويل الذي أضحى خاليا تماما • كان يحس بالاغتراب !

وراح يحدق بذهول في عشرات اللافتات الزجاجية الملونة ، شعر بالدوار يشق رأسه وغمره خوف مفاجيء ، تذكر قشرة

الليمون ، الحيوان المطاطي وتلفت الى الخلف ، كان صمت عميق يغمر الشارع أسرع في مشيته ثم راح يعـدو بسرعـة ، وكان الحيوان المطاطي ذو الاسنان الفولاذية يطارده بعنف وحشي ! •

١٥ — ١٠١ — ١٩٦٤


الفصل

كان يهزني بيده الصغيرة ، بعد أن أخذتني اغفاءة قصيرة ، حيث أحسست بثقل في جفوني ، وبعد لأي فتحت عيوني لأراه جميلا ، بريئا .. في عينيه تلهف والحاح :

ـ أريد أن تحكي حكاية أخرى .. ارجوك .. ارجوك.. حكاية واحدة فقط ! . غاصت عيوني الناعسة في تقاطيعه الصغيرة، ورحت أربت بيـــد حانية على ظهره وأطرافه ، وأنا أحكي له حكاية ، او هكذا كنت أدعي .. فلقد كانت الكلمات تتساقط من فمي . متعبة . لاهثة . وكنت أحاول قدر استطاعتي أن أملأها بالاحداث الضخمة المثيرة ، حيث كان ينفعل لها بصدق ، ويظل

يحدق في تقاطيعي وهو يكاد يأكل الكلمات المتساقطة قبل ان تخرج من فمي ! •

كانت عضلات وجهه الصغير تتوتر وتتقلص ، ثم يظل جامدا كتمثال صغير من خشب ، حين تكون الحكاية قد بلغت حدا مثيرا جدا ، حيث يسيطر بشكل غريب حتىعلى تنفسه ، لم تكن لتفوته كلمة ولو صغيرة من الحكاية ! •

قاطعني فجأة بعد أن لم يعد يطيق السيطرة على أعصابه :

ـ ماذا فعل الولد الشجاع في النهاية •• هل قتل العفريت ••• وهل سيتزوج الاميرة الصغيرة •• وهل •• وهل ؟؟ !

كان يسبق الحوادث في بعض الاحيان ، حين يلتذ حتى أعماقه بالحكاية ، وكنت أجيب على أسئلته الساذجة الملحة وعلى شفاهي بسمة حنان وفوق وجهي تعبير آني مصطنع للأنفعالات التي يتطلبها الموقف !

أسدل جفونه ببطء ثم راح يغط في نوم عميق •• دسست نفسي في الفراش الدافيء وسرعان ما غفوت •

في الليلة التالية حكيت له حكاية الرجل الذي طعنه لص من الخلف ثلاث طعنات وكانت ابنته الوحيدة • • الصغيرة • • تبكي فوق جثته بحرقة •• ولست ادري كيف حضرتني هـذه

الحكاية بالذات ؟ •

في الصباح كان يروي لوالدتي الحكاية بالتفصيل مما جذب انتباهي ، حيث انزعجت هي كثيرا وراحت تلومني على ذلك ! •

كان يسرد الحكاية بصدق غريب وينفعل بعنف وحين وصل الى مقتل الرجل •• وبكاء ابنته الصغيرة •• صاح في وجه أمه بغضب وألـم :

ـ لماذا قتله اللص هكذا •• انه جبان • لماذا • لماذا • أين ستذهب الطفلة المسكينة ! ؟ ••

صمت للحظات ثم راح يفكر •• هتف بغتة كمن توصل الى حل لمشكلة تثيره وتحيره •• وخاطبها بتوسل وحزن :

ـ ما ما ••• لماذا لاتدعينها تعيش معنا •• هنا في البيت! ؟

ضحكت أمي وهي تهز رأسها وتحتضنه بحنان بالغ • •

قالت وهي لاتزال تضحك •• وكانت لضحكتها رنة ألم مكبوت :

ـ لابأس ياصغيري •• سيكون لك ما تريد ! ! •

غالبت ضحكة وانا أسمعه يضيف بنفس الحرارة والصدق:

: ـ سوف أطلب ذلك منه •• الليلة بالذات يا ماما • • الليلة بالذات ! !

كانت الغرفة تبعث رائحة خانقة من أثر المدفأة •• فتحت

النوافذ قليلا .. ولفترة وجيزة .. فالبرد كان شديدا . . وبعد أن أتممت كل شيء شعرت برغبة قاتلة لأتمام رواية طويلة كنت قد بدأت بقراءتها منذ أيام .

كان كعادته يمتد الى جانبي دافئا . صغير .. ولمحت في عينيه الرغبة الجامحة لسماع نهاية الحكاية التي فاتته رغما عنه .. ورحت أمتص عيونه وأصابعي تغوص برفق في شعره الاسود الناعم .. حاولت أن أقنعه برغبتي في القراءة .. غير أنه الح على بأرجاءها الى وقت آخر ، واشترط عليّ أن انهي الحكاية بحيث يموت فيها اللص شر ميتة ! !

ضحكت وانا أطبع قبلة دافئة على جنبيه الصغير ، ورحت أهمس ببطء ، وأحاول ان ارسم فوق وجهي علامة دهشة واهتمام وواصلت : ـــ

: ـــ كان ذلك منذ مائة عام .. حين أراد الملك الشيخ ان يخلف من يصلح للحكم بعده .. حيث اشترط أن تقف حمامة بيضاء .. ثلاث مرات فوق رأس احد افراد شعبه . . . دون تمييز ! .

قاطعني بغتة وقد ارتسمت علامة انزعاج كبيرة على وجهه الصغير وراح يردد بعصبية :

ـ أريد حكاية اللص .. الذي يجب ان يموت شر ميتة ..
لأنه ترك الطفلة لوحدها تبكي بحرقة .. ياله من قذر .. جبان !!

غمرني شعور عميق بالزهو والحنان فأحتضنته بقوة وانا أمطره بقبلاتي وتمتمت :

ـ ليكن لك ما تريد .. يا عزيزي ..

ورحت أصطنع نهاية تسره .. وهمست مواصلا حكايتي السابقة :

ـ وفي مساء اليوم التالي .. كانت الطفلة المسكينة قد وجدت مكانا تنام فيه .

غمر وجهه فرح فجائي .. غير انه انزعج قليلا .. وهو يردد بألحاح :

ـ لماذا لم تجلبها عندنا ... لماذا ؟ ! .

كتمت ضحكة صغيرة وأخذت أهمس في أذنيه وأنا اضمه اليّ بقوة :

ـ لقد وجدت الطفلة أخيرا مكانا تنام فيه .. حيث أخذها رجل طويل اللحية ، وكان للرجل الشيخ صبي في الرابعة عشرة .. ايستطاع بمساعدة الصغيرة أن يحفر حفرة كبيرة ، سقط فيها اللص اللعين .. حيث أبلغا الامر للملك ، وتم شنقه في صباح

اليوم التالي وبقيت جثته معلقة ثلاثة أيام بلياليها ، حيث أكلت من لحمه المتعفن الطيور الجارحة ..

ضحك ببراءة وراح يضمني اليه بكل ما يملك من قوة وهو يردد بلذة عنيفة :

ــ هكذا تكون الحكاية ! ..

صمت هنيهة وعلت وجهه امارات الاهتمام الشديد .. وقال متسائلا :

ــ وهل تزوجت الطفلة .. الصبي بعد ذلك .. لشجاعته ؟!

هززت رأسي ضاحكا :

ــ طبعا .. طبعا .. بعد ان كبرت قليلا .. ولقد كافأ الملك العادل .. الصبي الشجاع والطفلة الجريئة .. على عملهما البطولي !

في المساء التالي جلب انتباهي تغير فجائي طرأ عليه ، ولم أستطع تفسير ذلـــك .. كان قد قلل من حركاته وراح ينفرد لوحده ويظل يفكر ، ومسحة من الكآبة والانزعاج تعلو وجهه الصغير ..

أحسست برغبة خفية في مراقبته ، لعلني أعثر على السبب الحقيقي لذلك التغير الفجائي الذي أصابه .. كنت قلقا جدا ..

من أن يكون قد عرف الحقيقة .. ولكنه كان أصغر من أن يعيها .. يوم وقع الحادث المشؤوم .. وازداد نفورا مني يوما بعد آخر .. ولم يعد يطلب مني أن أسرد له حكاية ! .

كان يكثر من الدخول الى المطبخ ، واستطعت مرة وعن طريق الصدفة أن ألمح سكينا حادة في يده ، يلعب بها ، ويحاول ان يصطنع هدفا معينا يصوبها نحوه بقوة وغضب مما زاد من قلقي وخوفي .. وندمت في داخلي لانه ما كان ينبغي ان أحكي له مثل تلك الحكاية .. بالذات !!

مرت بضعة أيام .. وهو يزداد نفورا مني اكثر فأكثر .. مما دفعني الى وضع حل سريع لمشكلته التي تقلقه الى هذا الحد المخيف .. وتعذبني في نفس الوقت . طلبت منه أن ينام الى جانبي كعادته ، غير أنه تعلل بأسباب واهية لم تفتني ، مما اضطرلي أن أعنفه قليلا .. فراح يمتد الى جانبي على مضض .. كان كقطعة خشب .. وأخيرا ضممته الى أحضاني وقد غمرني شعور بالذنب ورحت أقبله بحنان وأنا اسأله :

ــ مابك ياعزيزي .. لماذا لاتتكلم .. مالذي تشكو منه .. هل أنت مريض .. هيا أجبني ؟ !

رفع اليَّ عينين مليئتين بالدموع .. وكانت عضلات وجهه

الصغير ترتعش وزاويتا فمه الصغير ترتجفان .. وسمعته يقول
وهو يغص بكلماته المتقطعة التي كان يخرجها بصعوبة بالغة :
ـ لماذا لم تقل لي الحقيقة ... كنت كلما سألتك عن بابا
.. تقول .. سوف يعود من سفرته قريبا .. لماذا كذبت عليّ ؟.
لقد قال لي الاولاد كل شيء .. بعد أن حكيت لهم حكايـة
اللص .. ليتني كنت كبيرا مثلك ! .. ليتني عرفت اللص . .
أنت تخاف .. تخاف .. تخاف ... أنت جبان .. جبان ! . .
وراح يصرخ بعنف وحبات دموعه تغسل وجهه الصغير . .
رحت أغمره بقبلاتي وانا أضمه اكثر فأكثر الى احضاني .. ولست
ادري كيف ضبطت مشاعري العنيفة .. وأحسست بأنني أصغر
منه بكثير !!

٥ ـ ١٢ ـ ١٩٦٤

سنة في قفص حديدي

تلفت حواليه بحذر ، ثم ابتلعت عينـاه اللفافة ، وأحس بدوار يشق رأسه وراح يردد دون وعي :

ـ تنانة .. تنانة .

شق صمت الغرفة صوت حاد ، لكنه ضعيف .. كان اشبه بنواح صغير .. وأخيرا استسلم للواقع كجندي نفذت ذخيرته فرفع يديه الى أعلى .. وكان رصاص ثقيل يضغط صدره .. نفث عدة سحابات كثيفة من سيجارته .. وملت كل شيء داخل الصمت .. هو يغور في اعماق بعيدة من القلق والخوف .. اذن .

ظل يحدق في كتلة اللحم بقلب يدق ببطء ، وشعر بلسان

حاد يمتد من الفراغ ليقضم أصابع قدميه ، وكانت تنبعث رائحة عطر تفاذ من اللفافة تدغدغ انفه وتخدرت اعضاؤه •• اللسان قد أكل نصف جسده •• واحسه في قلبـــه •• تمزقت شرايينه وراحت الدماء تتدفق بقوة مكونة نافورة حمراء وسط الغرفة •• رآها تهبط تدريجيا حتى جفت القطرة الاخيرة •• وبعدها هبط جسده كلوح من الخشب الاجوف ••.

لقد بدأوا يحملونه الى حفرة ضيقة ليظل هناك الى يوم لا بداية له ولا نهاية ••• يوم متأرجح في الفضاء ، مجرد دفقات من الزمن •• اللامرئي •

لسانه كقطعة فولاذ موضوعة بين فكيه ، التقاطيع مختلطة • حمراء ذات ندوب ضخمة • واحس بقرف في داخله •• كانت معدته مثقوبة كغربال عتيق •

غطت عينيه سحابة كثيفة وتأرجح كبندول ساعة ، قبل ان يستند على الحاجز الحديدي النحيل • اللفافة ما زالت تبعث رائحة عطرة ، كان كل شيء يدور في رأسه ، وابتسم ابتسامة لامعنى لها • حدق في الحائط دون وعي •• كان باب صغير قد نبت في وسطه •• عقدت الدهشة لسانه ، الباب لم يـــكن موجودا قبل ساعة من الزمن • تلفت حواليه بذعر ليتأكد من وجوده في الغرفة

.. الباب لم يكن موجودا قبل ساعة من الزمن تلفت حواليه بذعر ليتأكد من وجوده في الغرفة .. كانت كتلة اللحم لاتزال تتأرجح داخل القفص الحديدي ... أحس بنفسه ثقيلا ، وكان قلبه يدق بعنف .. ظلام ثم غرفة واسعة .. اجتاز الباب مترددا .. ماذا يرى .. ودعك عينيه بأطراف أصابعه ... كان طفل في الثالثة ، جميل التقاطيع ، تتراقص على جبينه خصلة سوداء ، كانت عيونه ساحرة وابتسم له وهو يعدو نحوه .. فتح ذراعيه بحنان وراح يمطره بقبلاته المحمومة .. شعر بشيء ساخن يسيل من عينيه ، أخرج لسانه بصعوبة كبيرة ، واحس بملوحة ، ثم دفن رأسه ثانية في صدر الصغير الذي كان يمتص تقاطيعه بذهول وماتت البسمة فوق شفتيه ، تأمل وجه الصغير بحنان وراح يبتسم له ابتسامة حاول ان يجعلها كبيرة ، شفافة ، رفع رأسه المحموم واخذ يعب حفنات كبيرة من هواء بارد ، كان يصفق وجهه .. فينتعش .

تلفت حواليه مذعورا ... كان الطفل قد أختفى .. ولم تكن الغرفة لتحوى شيئا البتة .. مجرد ظلام وصمت ثقيل .. أحس برعب يغمره وكان رأسه ككرة من رصاص مصبوب .. ..

مرت فترة صمت ثقيلة ولا تزال عيونه مغلقة .. فتح عينيه

مترددا وجمد في مكانه وهو يمتص بابا جديدا مزروعا وسط حائط ضخم .. كان الباب طويلا وهو يهتز ليفضي الى غرفة كبيرة .. عارية .. تغمرها ظلمة كثيفة ، راحت اصابعه المرتعشة تتحسس الجدران الملساء الباردة ، وكان يرتجف كمقرور .

هـدأ قليلا وهو يستعيد انفاسه اللاهثة ، ولم يعد يشعر بالخوف ، وجرجر .. قدميه بصعوبة ليس يدري لماذا توقع رؤية الصغير ثانية .. غير أن كتلة من الظلام أقتربت منه ببطء .

تراجع الى الخلف مستندا على الحائط المرتفع وفجأة برقت وسط الظلمة القاتمة ابتسامة اضاءت نصف الغرفة واستطاع ان يلمح بوضوح صبيا في الثالثة عشرة ... وسيما جدا ، تنساب على جبينه الواسع خصله سوداء . كانت عيونه واسعة جميلة . وتذكر الصغير .. قهقة بصوت عال وكاد يسقط .. تجاوب صدى ضحكته في الفراغ واندفع دون وجل نحو الصبي ، وراح يمطره بقبلاته المحمومة .. أحس بثقل في ساقيه واخذ يبكي بحرقة

ضحك الصبي ضحكة عنيفة ، ثم ساد صمت كثيف .. مرقت امام عينيه حفنة من الظلام ، رفع رأسه واخذ يدعك جفنيه المرتخيين ..

كان يحس برغبة طاغية في النوم وانبعثت من أصابع قدميه

رائحة عفنة ، وتثاءب مرات قبل ان يغرق في سبات عميق .

شق صمت الغرفةصوت حاد اشبه بنواح صغير ... ابتلعت عيناه قطعا من بياض الغيوم المتناثرة فيالفضاء البعيد ودون شعور أمتدت يده الى جيب سترته العتيقة وأخرج دفترا صغيرا ذا غلاف جلدي أسود ، وراح يقرأ بضع كلمات كان قد كتبها .منذ أيام ودمدم بضيق :

ـ تتانة .. تتانة ..

وتذكر الزجاجة الصغيرة المخبوءة تحت الجلد الاسود والتي تستعمل كمرآة ... غمره شعور بالاختناق وكان لسانه ثقيلا جدا ، حدق في المرآة الصغيرة .. وهاله منظر وجهه .. كانت الاخاديد تحفر وجنتيه وجبينه .. ارتعشت عضلات وجهه ، لم يكن ليصدق ما يرى .. كانت المرآة الصغيرة ترتعش ، وكان نثار من رماد ، كرماد سيجارته يغطي رأسه . كان اشبه ما يكون بشيخ متعب . غمرته رجفة شديدة .. دفن الدفتر الصغير في جيب سترته العتيقة وحدق فيكتلة اللحم ، كانت ما تزال تتأرجح داخل القفص الحديدي وشعر برغبة طاغية في خنق الصغير ، غير ان ساقيه كانتا ثقيلتين جدا .. حاول انيقوم ولكندون جدوى . كان مشدودا الى مقعده بقيود حديدية سميكة أخذت .تصفر

شيئا فشيئا لتطبق عليه في النهاية •• لتعصره فتسيل بقايا دمــه المسفوح •• وتذكر نافورة الدم ، وغمره رعب قاتل ، لقد بدأ اللسان يمتد حتى عنقه ، لم يبق غير رأسه الثقيل وحاول ان يصرخ غير ان لســانه كان أثقل من ان يطيق تحريكه وراح يغوص داخل حفرة ضيقة • كانت الرائحة المنبعثة من اللفافة لاتزال عطرة •• بينما ظلت كتلة اللحم تتأرجح داخل القفص الحديدي ••

٢٥ ــ ٣ ــ ١٩٦٥

الشيخ

أحس بشبح حالك يمرقه ثم يجلس الى يمينه ، وحاول ان لايحدق فيه بل يظل كعادته يلتهم السطور المتراصة التي تدخل عينيه كسهام صغيرة سوداء ، غير انه لاقى صعوبة كبيرة في ذلك. سعل سعلة خفيفة ثم طوى الصحيفة المنشورة وبدأ يتلفت نحو الشبح بحذر وبطء ..

شعر بتقلص فجائي في عضلات وجهه بعد ان صدمت عيناه الوجه الكئيب ، كان الرجل يحدق فيالارض بشكل مثير ، بينما ترتعش شفاهه المصفرة بآستمرار وكأنه يخاطب شخصا معينا وينفث فيه غضبه .

اعتدل في جلسته ثم نشر الصحيفة ثانية وراح يتصنع القراءة ، بينما نظراته الفضولية تلتهم تقاطيعه ، وليس يدري لماذا كبت ضحكة صغيرة وهو يتأمل حركاته الغريبة . أصغى جيدا لعله يلتقط بضع كلمات من شفاهه المرتعشة وأحس بوخز في داخله وهو يقوم بهذا العمل غير انه سرعان ما تمتم بضجر : ـ

ـ ألست أبحث عن نماذج غريبـــة ؟ .. يجب ان اكتب باستمرار .

واستطاع بصعوبة فائقة ان يلتقط هذه الكلمات : ـ

ـ تفوه .. لص كبير .. وكلب حقيقي .. خيانة فظيعة .. كلب .. مثقف ... تفوه .. أطلق ضحـــكة قصيرة غاضبة ثم صمت ، وراح يهز رأسه هزات طويلة متتالية . وبدأ يحدق في الارض ثانية ولم يفه بحرف بعد ذلك .

كان الصمت ثقيلا ... المذياع مقفل وصاحب المقهى العجوز يتثاءب خلف منضدته الخشبية المتهرئة ، المكان يكاد يخلو تماما ليس هناك سوى عدد قليل جـدا من الزبائن يجترون حكايات طويلة مملة .

شعر برغبة جامحة في محادثته ، واقترب قليلا من حافــة الاريكة حتى اضحى قريبا منه ودون تردد قال : ـ

ـ مرحبا :

ضاع صوته في الفراغ وانتظر بلهفة جوابه غير ان الصمت أخذ يعمق اكثر فأكثر واحس بخجل شديد وارتباك وخاطب نفسه ببرود : ـ

ـ من يدري .. ربمـا كان سمعه ثقيلا . . فـلأ بدأ من جديد ..

رفع يده بهدوء وهو يكتم أنفاسه وأعاد :

ـ مرحبا ...

تحرك رأس الرجل ، فكانت نظرات حادة تطفح بالخوف والحزن تخترق وجهه المضطرب شعر بحرج موقفه ، وتفصد جبينه بحبات من عرق باردوندم لفعلته حاول ان يعتذر له بابتسامة صفراء رسمها فوق وجهه ودمدم دون وعي : ـ

ـ عفوا .. أخشى ان أكون قد ازعجتك ..

ضحك الرجل ضحكة قصيرة جافة وتمتم بغضب :

ـ أنت الآخر مثلهم .. هل تريد القيام بنفس الدور ؟ .. لا لقد فات الاوان .. انت لست صديقي .. انا لا اصدقاء لي البتة .. الصداقة خرافة . اكذوبة كبيرة .. كان صديقا قديما .. ولصا في نفس الوقت .. ياللقذارة .. تفوه .. تفوه ..

وخيم صمت ثقيل ، كان يأكل وجهه الشاحب وقد فغرفاه دهشة
خفض الرجل رأسه واخذ يحدق في الاسمنت الصلد وهو يضحك
ضحكة بلهاء ويردد بهلوسة :

ـ سخافة .. من يدري . قدأكون مجرد ذبابة تزعج بطنينها
السخيف الآخرين .. ورنت ضحكته في فراغ المقهى ثم نهض
بغتة ليجرجر خطواته ببطء وهو لايزال يهز رأسه هزات متواصلة،
وقذف بقطعة نقدية في الصينية الصفراء ثم ابتلعته فتحة الصحو
... وغاب .

ألقى بالصحيفة جانبا وأخذ يتثاءب وقد تراخت جفونه ،
وبعد لحظات كان يعاني من رغبة طاغية في النوم ... وفكر .. لماذا
هو هنا .. وفي هذه الساعة من الظهيرة القائظة .

كانت الحوانيت قد أغلقت وابتلعت البيوت اصحابها ، ولم
يبق سوى بعض التائهين من أمثاله وراحت الظـلال الكثيفة تملأ
الزوايا والمنعطفات بينما كانت الشوارع قد قذفت بكل شيء في
نهر من القيظ ، وأخذ الاسفلت يتمطى تحت الاقدام . راح يجرجر
هو الآخر خطواته في الشوارع الخالية .وكان يحس بالغربة وبأن
أمعاؤه تذوب ، ويضحى مجرد غبار تكنسه ريح قوية تهب فجأة،
انه فارغ وتعس .

أحس بموجة لافحة تحرق وجهه ، أسبل جفونه دون شعور وبعد لحظات كانت عيونه تمتص عشرات الوجوه المسطحة الخالية من أي تعبير ..

كان اسفلت الشارع يتقلص تحت قدميه وضحك لانه شعر بوجوده وجودا حقيقيا .. صفعت وجهه موجـة من نسيم بارد انتعش له كثيرا .. عب كأسا كبيرة من الماء البارد وكان لسانه طليقا في فمه واخذ يفكر :

ــ هل ثمة ما يربطه بالرجل ؟ فهو يحس بحب عنيف نحوه كان يشتم كائنا ما انه يعاني من الخيانة .. وهو .. لماذا لايعيد النظر في علاقتــه بأصدقائه .. وضحك للفكرة .. ثم سرعان ما مسحها من ذهنه المشوش ، وبرقت صورة ــ ناهدة ــ في خاطره وابتسم بمرارة وهو يهز رأسه زفر بعمق ثم غاص في موجة من ذكريات الماضي القريب .. وفكر ...

كان زوجها غبيا كبيرا يضحك دون سبب ويظل يرسم فوق شفتيه ابتسامات مزيفة تفضح ما في شخصيته من اضطراب يحاول عبثا أخفائه فهو نذل من نوع خاص ... هو الآخر لص كبير .. ألم يسرقها منه؟.. مجرد نقود عملية بيع وشراء قذرة .. الحياة نفسها صفقة تافهة .. لقد ماتت في نظره منذ اللحظة التي التصقت

بكيانها اللحمي الغض في أحضانه وتمتم بغيظ .

ــ الخيانة متوقعة في كل لحظة اذن ... رغم بشاعتها .

وتذكر الرجل فغمرت وجهه ابتسامة كبيرة وشعر بحب عميق نحوه ... ورثاء حقيقي . تدفقت سيول جديدة من الدماء في عروقه المتيبسة .. انتعش لها رغم المرارة التي كانت تملأ فمه. لقد ظهرت الحقيقة أخيرا .. بعد ان تمزقت الحجب الخادعة التي كانت تغطي بها وجهها . القضية اذن مجرد خدعة . عملية خيانة صغيرة مجرد اسم لامع يبرق في ظلمه جمجمتها الضيقة فترتاح ، وتزهو بين صديقاتها ، وزوجها الغبي لايزال يحتفظ بمسحة من شباب غابر ويقود سيارته الفارهة . هي جذلى رغم عجزها عن محو مسحة الكآبة المختفية تحت طلاء وجهها اللامع . مرة أخرى نفس اللعبة المقيتة . الفراغ . الصمت القاتل والمذياع المقفل . الحوانيت مغلقة واسفلت الشارع لازال طريا يتمدد تحت ثقل الاقدام الضائعة ، وتظل الاجسادتغوص وتغوص ،وتبقى الرؤوس لوحدها وكأنها مزروعة في أصص من قار ذائب .

مرق الشبح من أمامه ثم غاص في مقعده . كان الرأس منخفضا كالعادة والعيون غائرة تمتص بريق الاسمنت الصلد بينما فتحة الصحو القريبة من مقعــد صاحب المقهى العجوز كبيرة

ومستطيلة .

التقط الصحيفة وغاصت عيونه في البقع الصغيرة السوداء المرصوصة بانتظام والتفت نحو الرجل وشوق قاتل يتأكله من الداخل وراح يدمدم كعادته بكلمات غامضة كان غائصا في سروال عريض وقميص متسخ كالح وقد نبتت شعيرات ذقنه بغزارة ، أحس برثاء عميق نحوه واخذ يمتص تقاطيعه بنهم غريب . رفع الرجل رأسه وراحت عيونه القلقة تحدق في السقف وهو يغمغم بكلمات متقطعة ويضحك بين فترة وأخرى ضحكات قصيرة ، عصبية ، ويصر بأسنانه وكأنه يسحق تحتها حشرة قذرة تزعجه . زم شفتيه بقوة ثم أطلق ضحكة عنيفة وهز رأسه وراح يردد بغضب وألم ..

ــ أنا ذبابة .. لقد سرقها مني بنذالة ... خمس سنوات عشناها بسعادة .. ثم جاء اللص .. لقد خدعها أخيرا .. أنا كلب حقيقي .. تفوه .. صداقة .. انا كلب .. كلب .. تفوه .

صمت فجأة وأخذ يهز رأسه وهو يضحك .. لقد عرف كل شيء أخيرا ... غمره شعور كئيب نحوه وابتسم دون ان يدري لماذا .

طوى الصحيفة وقذفها بعيدا .. غمرته راحة عجيبة وشعر

بأنه ليس وحيدا في هـذا العالم وازداد حبه للرجل وتمنى لو يعانقه ..

كان خيط قوي جدا يربطه بهذا الكائن التعس ، وقبل ان يحاول مخاطبته ، نهض فجأة كعادته . مجرجرا خطواته الثقيلة .. ملأ فتحة الصحو المستطيلة للحظات ، وتلفت خلفه لاول مرة .. كان ينظر اليه نظرات غريبة وضحك وهو يهز رأسه هزات سريعة ثم سرعان ما غاص في النهر القائظ من جديد ..

٨ — ٤ — ١٩٦٥

الجزاء والنثر

حفنة عظام عتيقة ، مشدودة الى بعضها البعض برخاوة ، تكاد تنحل وتتساقط نثارا رمادي اللون بمجرد لمسها الارض ، هذه العظام تستطيع ان تجلس وتمشي ولو بخطوات مرتعشة واهنة ، ويطلق على كومة العظام المتحركة هذه اسم فيه نداوة الشباب وطراوة اللحن الجميل .. ابو فوزي ..

كانت نظارته الطبية العتيقة تقبع بأرتخاء فوق عظمة ضخمة ، طويلة ، مفتوحة من النهاية فتحتين كبيرتين . والوجه .. مجرد لحمة متهرئة . مضغوطة ضغطا قويا بحيث سال كل ما فيها من عصير الحياة .. فبدا كعجينة عبثت بها اصابع قاسية . غضبى ..

السدارة المغبرة كأنها ركبت قسرا على جانبي رأسه العتيق،

يحار المرء في تفسير لونها ، فهي مصبوغة بالقذارة والاتربة ، واشـياء أخرى كثيرة اما عيونه فحفرتان صغيرتان بلون رماد السجائر صنعهما طفل عابث فوق تل من الرماد ..

كان شاربه الابيـض مقصوصا بشـكل يثير الضحـك ويفضـح ارتعاشـه يديـه وهو يحاول تشذيبـه ، لم تكن له في الحقيقة اعضاء ثابتة . قوية مجرد هيكل عظمي مكسو بجلد متغضن .. هيكل يرتجف مع هبة نسيم قوية ! جلست قبالته دون ان يحس بوجودي ، غير انه التفت نحوي بحركة غريبة وأخرج صوتا نحيلا كأنه مواءقط صغير : ــ مرحبا ياولدي .

شيء محبب جدا ، نحيل لكنه مؤثر ينبعث من جوف بئر عميق القرار ، من اعماق انسان قالوا عنـه ، بأنه شهـد حربين عالميتين ، أبادتا الملايين من البشر . على أيدي وحوش ادمية ، وظل بمنجى من ذلك الجحيم البشري الذي سموه .. بالحرب . . نجا من الجحيم بأعجوبة وجاء ليجلس قبالتي في دعة وعلى أريكة متداعية في مقهى شعبي صغير .. اعتاد ان يرتاده مرة واحدة كل يوم .

وعلى جرة انفاس واهنة من ــ نرجيلة ــ متسخة كان يختصر امامي عبثية الوجود .. وتفاهته . الشيخوخة مزعجة مخيفة .

هكذا احسست ، فلقد كاد ان يلفظ انفاسه بعد سعلة طويلة لازمته ، أحمرت على أثرها تجعدات وجهه الاسطوري ولاول مرة ايقنت بأن في هذا الهيكل المتخشب بقايا من دم . كانت المحفرتان الرماديتان قد امتلأتا بالدموع ، وشعرت بدموعه عتيقة ، دموع رجل يبكي ببساطة . دموع تسعين عاما او يزيد . غمرتني موجة رثاء لهذا الكائن الذي يتعذب كل لحظة ورحت اشعر نحوه بحدب خفي خرج الهواء من اعماق البئر من جديد :

ـ هكذا ياولدي .. انها الشيخوخة اللعينة .. الشباب شيء رائع .. تمتع . ياولدي .. اغتنم كل لحظة من شبابك . فالنهاية أتية رغم كل شيء . أوه .. على اي حال .. نهاية كل حي . نحمده . ونشكره . هيه . دنيا ! . زفر من الاعماق بعد ان هدأ قليلا ، وراح يجر نفسا طويلا من النرجيلة ، وبعد فترة قصيرة . بدأ يغمغم بلحن قديم ! .

عقدت الدهشة لساني .. أي نوع من البشر هذا الكائن الذي يجلس امامي ؟ . كانت قدمه تضرب الارض بأيقاع متزن خفيف مع اللحن .. وكانت بقايا الدموع لاتزال تلمع في عينيه ، لم يبق شيء في حياته . كان كمحكوم عليه بالاعدام ينتظر التنفيذ بين لحظة وأخرى .. ربما ينتهي قبل ان أغادره قد يغمض جفنيه

ولا يطيق بعد ذلك فتحهما .. فقد استهلك كل عضو من جسده بما يكفي ،ربما سارالاف الكيلومترات بقدميه اللتين يحركهما الآن على ايقاع لحنة الاثير والحفرتان الغائرتان صافحتا ملايين الصور والاشياء والوجوه ، حتى لم تعودا تصلحان لشيء سوى التحول الى رماد وهـذه الحزمة من الشعيرات البيضاء ، هذا الشارب الغليظ ، ربما أثار مكامن اللذة في أكثر من جسد انثوي .. من يدري كم من الاجساد الدافئة المشهية قامت هذه الشفاة المتغضنة برحلات لذيذة . طويلة . فوقها .. وأخيرا انتهى المطاف ، وتمت الرحلة .. هنا فوق مقعد خشبي متداع .

جاء صديقي احمد وعلى شفتيه ابتسامة مشرقة كالعادة حيا ــ أبو فوزي ــ وداعبه كعادته ثم غمزني وراح يحدثه والابتسامة لاتزال تملأ وجهه الشاب : ــ

ــ عمي ابو فوزي .. هيا .. هات نصيبي اليوم .

مد راحته ومن خلال تجعيدة رسمها فوق وجهه ، خيل الى انها ابتسامة ، مد ــ ابو فوزي ــ يده المرتعشة في جيب سترته العتيقة وأخرج بضع قطع من الشيكولاته وقـدمها اليه وهو يدمدم : ــ

ــ لقد نسيت يا ولدي .. انني بدأت انسى كثيرا في هذه

الايام •• هيه •• دنيا ••

وراح يغمغم باغنيته العتيقة •

غمرني ذهول ورحت استفهم من صديقي احمد الذي كان لايزال ضاحك الوجه •• منشرح النفس •• وهمس لي : ــ

ــ هذه عادة قديمة عنده •• انه يعطي للصغار دائما • • فهو يجد في العملية نوعا من اللذة •• وحتى بعض الكبار بدأوا يطلبونها منه •• ان نصف راتبه التقاعدي الضئيل يبذره بهـذا الشكل •• والآن دعني امازحه قليلا • أخـذ احمد يمازحه في مختلف الشؤون دون ان يبدو على الرجل العجوز اي علامة من علامات الانزعاج • وأخيرا سأله :

ــ أبو فوزي • • الا تخشى وانت تمازح المتسول الابله

ــ عبد ــ من ان يدفعك دفعة قوية فتسقط • وتتأذى ؟ !

رفع رأسه المرتعش بصعوبة وراح يحدق ناحية صديقي ، ويوجـه اليه نظرات غير واضحة •• ولكنها تنبىء عن غضبه وانزعاجه ••

أحس احمد بحرج شديد لسؤاله الجارح •• ثم غمغم ابو فوزي بعصبية واضحة وكمن اهين اهانة غير متوقعة •

ــ ماذا • ؟ لا ياولدي •• انت مخطىء •• لن يستطيع

احد أن يؤذيني وخاصة المتسول الابله ــ عبد ــ •• لانني اعطيه دائما •• ومنذ سنوات طويلة • انه ليس لئيما •• فهو مجرد أبله •• ولكنه ليس لئيما •• هل فهمت ياولدي •• ؟

كست وجه احمد غلالة حمراء ، حاول ان يعتذر لما بدر منه، غير ان الرجل العجوز سرعان ما غير من أسلوب كلامه ، كمن يحاول ان يمسح بيد حنونة ، ابوية على قلب طفل يتألم وقال ببطء •

ــ ولدي •• انت لاتزال صغيرا •• الحياة رغم كل شيء تزخر بأشياء رائعة • كأن يحس الرجل بأنه •• رجل حقيقي •• له كرامته التي يجب أن تصان •• سترى اشياء مثيرة •• ياصغيري •• فمنذ اكثر من اربعين عاما •• فقدت آخر اولادي •• فوزي • الذي كان في مثل سنك • يملأ حياتي الفارغة بألف معنى ومعنى• بعد ان ماتت امه • لقد تزوجت اكثر من امرأة • كنت اتزوج للمتعة فقط ! •• غير ان جميعهن انتهين الى المصير المحتوم • وكان فوزي آخر خيط يربطني بالحياة •• والآن اين هو ؟ ! •• هيه • دنيا • ربما اكلته الاسماك • من يدري ؟ لقد خرج في ظهيرة يوم قائظ ليسبح في هذا النهر الذي ينساب الآن امامي بكل هدوء • هنا • بالضبط • القى بنفسه •• ولم يخرج بعد •

هذا النهر هو عدوى الوحيد في هذا العالم . غير انني اضعف من ان انتقم منه ! .كان فوزي يحب هذا النوع من الشيكولاته. وكنت املأ جيوبي كلما عدت مساء الى البيت . كان صغيرا حينئذ .. وعندما اصبح شابا قويا مثلك .. تماما .. سلبه النهر اللعين مني . وبقيت بلا معنى .. لا أجد غير السخرية سلاحا انتقم به من عدوى اللدود . النهر ! . سأعيش بمرح بقية ايامي .. سأغني .. واوزع الشيكولاته للاطفال .. وحتى للكبار . الى ان تحين نهايتي اما عدوى اللدود . فسيظل هادئا .. وكأن شيئا لم يحدث !

كان الصمت ثقيلا .. احسست به يطبق على خناقي ، وشعرت بأحترام كبير وحب لهذا الهيكل الغريب المرح الذي يختصر عبثية الوجود امامي .

كانت يده المرتعشة تبحث عن العصا الغليظة التي يتكيء عليها .. سعل سعلة طويلة حادة .. لم يعد يطيق النهوض .. فراح يتكيء على الاريكة التي اهتزت قليلا .. كانت سدارته قد سقطت أرضا فبدا رأسه وكأنه قبعة من نديف الثلج .. رفعت سدارته . وناولتها اياه بعد ان نفضتها عدة مرات ..

حدق في وجهي بأمتنان وقد امتلأت عيناه بالدموع وغمغم:

ـ شكرا يا ولدي •• انت من صلب رجل حقيقي !

ارتاح قليلا ، وغاص رأسه في صدره الواهن ، ثم اخذته غيبوبة قصيرة انتفض بغتة كطائر جريح وحاول القيام غير اننـا رجوناه •• الجلوس قليلا • ليرتاح ولكنه أصر اصرارا غريبا على الذهاب ، وبعد مشقة وبمساندتنا استطاع الوقوف على قدميه • كانت العصا الغليظة ترتعش في يده بشكل واضح وقبل ان يتركنا غمغم بصوت نحيل :

ـ ألا اخبراني •• اين تباع الاحذية الجيدة •• المتينة • • فانني لم أعد أرى الاشياء بوضوح ! ؟

غمرنا ذهول مفاجيء ، ورحنا نتساءل باندهاش :

ـ ماذا •• أحذية متينة •• ولمن ؟ !

أجاب بهدوء بعد ان عب قليلا من الهواء :

ـ لي طبعا •• فلقد تمزق حذائي • رغم ان الحياة تافهة • • فان لكل جديد • لذة ، حقيقية • ثم انني ربما أزور ولدي فوزي • هنالك •• وراء النهر • فمن المخجل ان يراني بحذاء ممزق عتيق • وسوف احمل له بعض الشيكولاته •• هيه • • دنيـا !

في اليوم التالي جرجرت نفسي الى المقهى المذكور ورغبة

طاغية تغمرني في رؤية ــ ابو فوزي ــ الهيكل الادمي المتحرك الذي جعلني احبه كثيرا •• دخنت اكثر من نصف علبة من السجائر وانا أترقب مجيئه بتلهف شديد ولكن دون جدوى •• وقبل ان أترك مكاني سألت صاحب المقهى عنه •• فحدجني بنظرة حزينة وغمغم وهو يهز رأسه :

لقد مات !

ــ مات ؟ • كيف •• ومتى ؟

أجاب بهدوء : ــ

ــ مات كما يموت الناس عادة •• البارحة مساء •• قبل غروب الشمس بساعة واحدة ! •

غمرني شعور بالاسى وقبل ان أغادر المقهى •• جاءني احمد وعلى وجهه كآبة •• قال وهو يهز رأسه :

ــ مسكين •• لقد اشترى الحذاء أخيرا •• ولكن دون ان يرتديه • كان يحب الحياة رغم كل شيء !

تركته بعد ان سألني عن وجهتي •• قلت بعد صمت قصير ينضح بالالم والسخرية :

ــ أريد ان اتمشى قليلا •• هنالك عند حافة النهر •• عدوه اللدود الذي لم يستطع ان يقهره أبدا !

٢٠ ــ ١ ــ ١٩٦٦

صيدا يجف البحر

انتهيت أخيرا من حزم حقيبتي الجلدية ، وشعرت براحة تغمرني . كانت الاشياء تبدو لناظري وقد كستها الطراوة .. حتى جدران غرفتي العتيقة بعثت في نفسي ولاول مرة منذ اكثر من عشرين عاما .. شعورا بالانطلاق .. بعد أن كانت مجرد ألواح صخرية عريضة تنتصب بجمود أمامي ! .

اليوم هو أول أيام رحلتي الطويلة التي ستبدأ بعد ساعة ونصف بالضبط . ساعتي تلمع بشكل غريب .. رغم انني ابتعتها قبل اكثر من عشر سنوات كل شيء جديد ، يبعث النشوة في عروقي الخامدة .. أشعلت لفافة ، ولاول مرة شعرت بلذة عنيفة لها ..

التدخين شيء رائع حقا .. فأنه يشعرك على الاقل بأنك ترتفع مع سحب الدخان الزرقاء نحو الفضاء البعيد .. لتتلاشى ببطء . وتغوص في العدم !

*

عجلات السيارة تبدو وكأنها تعدو نحو أفق مجهول . . تتدحرج بعنف .. لتصل الى هدف معين في وقت محدد !

إبتسم السائق من خلال المرآة الصغيرة التي أمامه وقال :

ـ على المرء أن يسافر دائما ... كل يوم .. الى مكان جديد .. وجوه جديدة .. حياة جديدة ! غمرني فضول فرحت ألتهم تقاطيعه الصارمة ، ثم سرعان ما ماتت الابتسامة الغامضة على وجهه .. واخذ يزفر بصوت مسموع .. وساد صمت عميق .

*

كان الميناء غاصا بالمسافرين .. مئات الوجوه المملة .. آلاف الاشياء تنتصب أمامي بجمود قاتل . الباخرة . كحيوان عصري ضخم . تقبع بحذاء الرصيف الاسمنتي الطويل .

داعبت وجهي نسمات رطبة هابة من البحر . رحت أعب الهواء بلذة . كان شيء بارد لذيذ ينحدر الى جوفي .. واحسست بانتعاشة كبيرة .

البحر شيء رائع حقا •• لم ألتفت الى الخلف حين زعق الحيوان العصري للمرة الاخيرة • كنت أخاف من الماضي خوفا مجهولا • بكل لامعناه • أما المستقبل •• فكان يبدو لي مغلفا بضباب كثيف • ورغم ذلك ، شعرت بميل عنيف الى السفر •• لأعيش بقية عمري في جزيرتي النائية ! •

كنت أعيش خلف البحر •• بمسافة مليون ميل او أكثر ! •• النسيم يهب بهدوء • كل شيء مثير •• وجديد •

شيء خفيف يلامس طرف وجهي من الخلف •• شعرت بأمرأة تقف خلفي تمتمت دون ان التفت اليها :

: ـ اوه •• عفوا •• لقد كنت احلم •• ياسيدتي •

جاءني صوتها رقيقا • فيه دفء وكآبة • ودون ان التفت اليها غمغمت :

: ـ يبدو ان حلمك رائع حقا •• أخشى ان أكون قد أفسدت عليك لذته •• أرجو المعذرة •• فأنا متطفلة منذ الصغر •• اريد ان أعرف كل شيء •• وأمتلك كل ما أريد ! •

صمتت قليلا • ثم اردفت بعد ان زفرت زفرة عميقة :

: ـ آسفة • انا الاخرى لا اطيق التلفت الى الخلف •• علي" أن أحدق دائما في البعيد •• فأنا وحيدة أبدا •• لا أكاد

أحس بأي معنى •• لوجودي !!

كان نصف وجهي نحوها •• أما النصف الآخر •• فأزاء البحر المتلاطم البعيد ••

قلت وانا اكتم شعورا بالخوف من الماضي :

: ـ لم يبق سوى ان نحلم •• ياسيدتي •• كم أحب ان تلامس وجهي حبات الرذاذ المتطاير ••• وان يظل الافق بعيدا •• الى مالا نهاية !!

ضحكت ضحكة ذات جرس رائع ودمدمت :

: ـ ارجو لك رحلة طيبة •• مع حلمك الجميل •• ربما نلتقي يوما •• كم أحب ان أنبثق من وراء الافق البعيد •• لأرى وجهك •• دون ان ألتفت الى الخلف •• فأنت تثيرني الى حد كبير •• انا لم أعد أطيق الحلم ! ••

صمتت للحظات •• ثم تلاشت كحزمة دخان •• وكنت أحس بعنقي يتصلب !

*

كانت أمواج البحر الهائج تبدو كجبال ضخمة تندفع من الاعماق بوحشية ثم تهبط بقوة كبنيان ضخم ينهار فجأة تحت ضربة قوية ••غسلت حبات الماء وجهي وثيابي • أحسست بملوحة

في فمي ...مع مرارة شديدة .. غير أنني لم أكن لاطيق الحركة .
كانت يداي مسمرتين على السياج الحديدي .

مرت ثلاثة أسابيع وأنا في جوف الحيوان الضخم الذي يصارع الامواج بوحشية . العالم يبدو متهرئا . مليئا باللامعنى. خيانات كل يوم . ملايين المرات . رجال حمقى يمضغون غباءهم في سطور ميتة يكتبونها دون ان يعرفوا لماذا ! . الكتابة عادة ذميمة . التطلع الشبق المحموم نحو البرج الزائف . الشهرة . مرض العصر الوبيل ! هذا أحدهم .. انه جالس بياقته المنشاة وربطة عنقهالملونة وحذاءه اللامعيدندن بأغنية مائعة .. ثم يبتسم بدناءة لصديقه . وفاء مفتعل وحب مزيف ، وتتكرر الزيارات لبيت الصديق اللدود ثم يفاجأ الآخر . الخروف . او القرد المطعون من الخلف .. بالحقيقة المرة . ثم يختفي الكلب بعد أن يلعق آخر عظمة تقع في يديه !

البحر ما زال رائعا . . . أمامي تمتد صحراء من المياه المالحة .. البحر هو الآخر حيوان عتيق يحمل فوق ظهره كل تفاهات العالم .. ومآسيه !

يوم آخر يمر وأنا أنأى عن القذارة .. الروائح التي تفوح من الافق البعيد تدغدغ خياشيمي .. فأحس بأنتعاش لها .. كم

أود لو أقذف بنفسي في احضان هذا الحيوان الجميل .. رغم شراسته . لأخرج بعـد ساعة . نظيفا . تعبق أطرافي بروائح زكية . فقط تنقصني الشجاعة . يجب ان أمزق كل شيء دون خوف . ما أروع قرص الشمس .. انه يبدو كبر تقالة ضخمة تتدلى من الافق البعيد !

أين تقع جزيرتي بالضبط ! ؟ .. لقد نسيت ذلك .. اوه .. انها السبب . السيدة . لقد شوشت ذهني بحيث لم أعد اطيق التذكر ! . كان ذهني صافيا عندما ركبت السيارة . السائق كان يبتسم بحزن .. أين كنت حين داهمتني الافكار السوداء ؟ ربما رسمت خارطة صغيرة لجزيرتي المنشودة في دفتري الصغير الذي أحمله معي دوما ؟ .. يبدو أن الدفتر قد ضاع ! . . أواه . . يداي ترتعشان كوريقات الخريف الهزيلة . ربما أكون محموما؟. فأنا لاأتعاطى المخدر .. فقط أدخن قليلا .. وفي فترات خاصة .

الشمس تشحب شحوبا غريبا .. وتتضاءل .. ثم تختفي ببطء خلف البحر . رغم أنه قد مضت ساعة واحدة فقط على شروقها .. فهي تكمل دورتها كالعادة ! .. الساعة في يدي لم تعد تلمع فجأة .. الظلام يهبط بهدوء ليبتلـع القرص الصغير الشاحب . ويلفه كل شيء ليل طويل يزحف من وراء الافق .

المسافرون يختفون ! . لم يعد للاشياء وجود حقيقي . فالصمت يسود كل شيء ! .. أنا وحدي فوق ظهر الباخرة ... والافق ! ؟ ..انه يتضاءل حتى يغوص في الفراغ .. البحر يجف تدريجا ... يتحول الى صحراء ملحية جافة ! لقد اجتذبت جزيرتي بعد ان أقتربت منها .. أين أنا ؟ .. قدماي تغوصان في الملح .. لااطيق الالتفات الى الخلف .. ولا السير خطوة واحدة الى الامام ... كل شيء يدور بعنف ووحشية !

*

بدأ الظـلام يبهت تدريجا .. أكاد أرى بعض الاشباح تتراقص أمامي .. أنا أتحرك . أحس برطوبة في وجهي . الملح له طعم السكر في فمي . ذراعاي قويتان . ربمـا وصلت الى الجزيرة دون ان أدري ؟ !

لقد أخذ الضباب يشف عما وراءه . جسدي خفيف ناعم . كريش طائر .. انها الجزيرة اذن ؟ .. ياسعادتي ! . لقد وصلت أخيرا .. ولكن .. آه .. ماذا . ؟ السيدة ؟ ! شيء غريب .. للروائح الهابة عفونةخانقة .. انهاتقترب مني،تواجهني برعب .كم بشع وجهها ؟ .. فأسنانها طويلة . ضخمة . حادة . انها تضحك بجنون .. تمد يديها نحوي .. ساقاي ترتعشان . قلبي يهبط

فجأة • أحس بجسدي مسمرا على الارض • • ربما أخطأت الطريق ؟!• لقد أضعت الخارطة •• انا لست في جزيرتي المنشودة •• هذا عالم آخر •• يشبه العالم الذي هجرته لروائحه العفنة !

رفعت يدي لاخفي وجهي عن السيدة المرعبة التي كانت تتجه نحوي ببطء ، ولم أدر كيف صفعت أذني كلماتها الرهيبة :

ـ لقد وصلت أخيرا •• الى حيث أنتهيت أنا ؟ •• هأنذا أواجهك من الامام ••• لماذا لاترفع يدك المرتعشة لترى حقيقتك في وجهي ؟ ! يالك من جبان •• كلكم جبناء • سفلة • تستحقون الموت !

وقبل أن تمتد يداها لتطبقا على عنقي الهزيل ، قذفت بنفسي وبكل ما املك من قوة فوق جسدها • كانت ترتعش تحتي كورقة جافة • وراحت عيناها الجاحظتان تنغلقان ببطء • كنت أحس بقوة مدمرة في ذراعي ورحت أضغط على عنقها واضغط الى أن لفظت انفاسها الاخيرة ! •• كان العرق يسيل من جسدي بغزارة وعندما انتهيت منها • كان البحر يبدو رائعا جدا والباخرة تتراقص بهدوء فوق أمواجة الهادئة ! قذفت بنفسي في أحضان البحر ورحت اصارع الامواج •• عندما التفت الى الخلف للمرة الاولى ، كانت

الشمس تبدو كبرتقالة كبيرة ملتهبة ترسل حزمة ذهبية نحو البحر من جديد ! !

٨ — ٢ — ١٩٦٦

خطوات مرهفة

مدت الشمس الملتهبة نحو عينيه الزائغتين حفنة مخضبة من شعاع أصفر لافح ، فرفع راحتيه ليتفادى شدة الضوء ، غير أن نظراته سرعان ماالامست أغلفة الكتباللامعة الملونة ، المتراصة بانتظام خلف الواجهة الزجاجية الضخمة .

الحر شديد لايطاق .. يحيل الاشياء الى سائل لزج ، ذي رائحة غريبة ، حتى مشاعره الغامضة المتصارعة في أعماقه كأمواج بحر هائج أخذت تسح من جلده المحرور ، وتتدفق كينابيــع ساخنة فيها رائحة الملح والتراب وأشياء أخرى كثيرة ذائبة .

أحاسيسه بالضبط هي التي تمزقه كل لحظة ببطء عجيب ، وترتسم على شفتيه ابتسامة صفراء فيغمغم وهو يقرأ العنوان المثير . سقوط الانسان !

ـ وهـل وقف الانسان على قدميه يوما ما .. دون أن يهتز .. مجرد أهتزاز فقط ؟ !..

شيء مثير حقا .. والادهى من ذلك ، أن يدا بضة لأنثى ناعمة .. كل جزء من كيانها الاملس ينبوع شهوة خالصة . . تمتد بكل بساطة ، لتقلب بهدوء شاعري صفحات الكتاب المذكور وفي أقـل من دقيقتين يلف الرجـل ذو النظارة الطبية السميكة والصلعة اللامعة الكتاب في ورق ناعم وعلى شفتيه بسمة مفتعلة ويقول بحذلقه تجارية أصيلة :

ـ تفضلي يا آنسة .. انه حقا كتاب مثير .. لقد بعت منه أكثر من ألفي نسخة خلال شهر واحد فقط ! ... تصوري العالم يتطور حقا !! ..

تهزه اللوحة الساخرة ويكاد يسقط على الرصيف القائظ ، ويبتسم باختـتـار مفضوح ، ثم يجرجر قدميـه المتعبتين بعنـاء كبير .. شارع آخر يكاد ينتهي ، وتغوص الموجودات بـكل

صلابتها في العدم .. شيء لذيذ أن يضيع المرء داخل هذه الكتل البشرية المتصادمة التي تقتل دقائقها اليائسة في السير على الارصفة وفوق اسفلت الشوارع الميتة .. وأخيرا .. لاشيء جديد .. مجرد غروب آخر ثم شروق جديد ممل .. وهكذا .. الآلآت الضغيرة المعقدة تتصادم داخل ماكنة عملاقة تعمل بآلية ممجوجة قاتلة ! .

يغفو قليلا فوق مقعد صالة السينما المبردة ، فله الحق في النوم لساعة ونصف ، الى أن ينتهي الشريط ويغمر القاعة الكبيرة ضوء ساطع .. ثم يبدأ العملية من جديد .. البحث عن الصغير .. صغيره الذي ليس يدري كيف تنازل عنه بكل شجاعة غبية .. في ساعة من ساعات غضبه المخيف .. كان حينئذ أصغر من أن يثيره ، او يربطه الى عالمه الغريب المعقد ! .

رفع رأسه بحركة غبية .. كانت الشمس قد تحولت الى دائرة صفراء شاحبة سفحت الكثير من عنفوانها على جدار الافق البعيد ، وأخذ يعب حفنات صغيرة من هواء رطب ممزوج برائحة التراب وتمنى لو يجلس داخل مقبرة عتيقة في أحد أطراف المدينة، فعندها يحس بأنه قريب جدا من الاموات الذين لايعكرون صفو تفكيره .. الموت ؟ .. الشيء الوحيد الذي يهابه بصدق .. .

يكون قريبا منه حين يفكر في الحياة .. او حين يقف على حافتها الحادة ! .

لحظات غريبة يكاد ينفصل فيهــا عن بؤسه الحقيقي ولو بشكل هلامي .. تمرق جمجمته المفككة صورة الصغير الذي يجسد كل احساسه العميق بالموت البطيء من الالم .. وعلى حين غرة يسقط الانسان في حفرة العــدم .. جثة كريهة الرائحة ، وتنفجر الاحلام الملونة كفقاعات الصابون .. ثم لاشيء بعد ذلك مجرد فراغ هائل يلتهم كل شيء بعنف وحشي !

يوم آخر ينبثق كحزمة ضوء عبر حلكة العدم .. ضوء باهت سرعان ما يتلاشى ، ولا يبقى سوى ... الاحساس بالموت ... بالتفاهة ! غير أنه يعيش للحظة عنيفة يترقبها بجنون .. يبحث عنها منذ اكثر من عامين .. لحظة أن يضم طفله الحبيب الى أحضانه بكل ما يملك من قوة .. لقــد كلت قدماه من السير والاستفسار ولكن دون جدوى .. فقد استطاعت اللعينة أن تعذبه حقا وتشعره بالنــدم كما قالت وهي تبكي بحرقة لحظة الانفصال المثيرة .. والآن .. فهذه هي المدينة الخامسة التي يغتالها بعينيه .. بقدميه المرهقتين .. بكل جارحة فيه ، يذبح كل جزء فيهامن أقدم زقاق الى أحدث بناية .. الى أصغر حجارة ..

سيارة أخرى تمرق من جانبه بسرعة جنونية وتكاد تدهسه • •
فلا يسمع بقايا الشتائم التي تصفع أذنيـه •• ابتسامة صفراء
تنزحلق على وجهه المغبر ، ثم تتيه خلال خطوط عميقة مرسومة
على جبينه تحكي مأساته بكل غباء •• رجل يبحث عن نفسه
وسط أمواج متلاطمة من كتل بشرية تائهة •• تسير نحو مصيرها
المحتوم •• كم يتمنى لو ينقطع هذا الخيط الرقيق الوحيد الذي
يربطه بهذا العالم الذي رفضه منذ أمد طويل ، انه لايزال يذكر
كيف عانقت شفاهه الملتهبة تقاطيع الصغير •• كان أصغر من أن
يعي شيئا عمـا يدور حوله •• وكان لحظتها يحس بالقرف إزاء
الاشياء المحيطة به ، •• يكاد يجن شوقا لحريته المفقودة التي
سلبتها اياه •• زوجته الغبية ، وحاول ان يحطم القيد بأي ثمن
كان •• وأخيرا حطم القيد •• بعثره الى قطع صغيرة تافهة ••
ودفع الثمن غاليا •• تنازل عن كل شيء •• حتى عن الخيط الرفيع
الذي يبرر وجوده •• في هذا الخضم المتلاطم •• كان الصغير
لايزال يخطو خطواته القصيرة المترددة الاولى •• يقف على قدميه
للحظات •• ثم يسقط ، ويعيد العملية ثانية بعد أن يتكىء على
حافة السرير الحديدي ويشعر لذلك كله بغبطة كبيرة ! سقوط
الانسان منذ البداية عملية مضحكة •• ولكنها تحز القلب بصمت

قاتل •• لايدري كيف أرتضى بالشرط القاسي الذي فرضته عليه، فتنازل عن كل شيء بغباء عجيب ••. لم يدرك فظاعة العمل الذي أقـدم عليه ، •• كانت لحظة رؤية ذهنيـة •• مثاليـة بحتة •• للأشياء •• جعلته يتراجع ويوقع بيد ثابتة وقلب صخري على الوثيقة ••• والآن •• لماذا بدأ هذا الغلاف الصخري الذي يغلف قلبه يأخذ بالتشقق والسقوط قطعة فقطعة ؟ ••• شيء مثير جدا •• يمزقه كل لحظة •• يحيل أيامه الفارغة الى جحيم يهرب منه عبثا ! ! ••

إن تشابه الاشياء وجمودها المذهل هو الذي يقتله ••يذبحه على الارصفة وفوق بلاط الشوارع الاسفلتية الذائبة •• يلصقه بجدار عمارة ضخمة ، يسمّره فوق أريكه عتيقة •• انه يتحول بالتدريج الى مجرد شيء • جامد • عمود حـديدي صدىء • ينتصب بغباء على رصيف شارع قديم •• وهكذا تستمر العملية المقرفة •غروب • ظلمة تغلف كل شيء بستار من الصمت والخوف• ثم شروق لافح يسيل كل الاشياء • حتى أحاسيسه المخنوقة ، فيشعر بأنقباض وملل ، ورغبة عنيفة في الموت !

*

يوم آخر يموت خلف جدار الافق البعيد ، يتلاشى كنغمة

عتيقة ، وتظل عيناه الباردتان تتجمدان في محجريهما من كثرة التحديق في الوجوه والاشياء ، الالم يعتصر قلبه بقوة ، فتتساقط بقايا القشور الصخرية المتهشمة ، ويتعرى القلب أخيرا • مجرد كتلة حمراء لينة من لحم وأعصاب ، تنبض بسرعة غريبة •وتتجمع الاحاسيس كروافد صغيرة من الدماء لتصب أخيرا داخل قطعة اللحم النــابضة • ثم تنفجر بعد أن يمتليء الينبوع الاحمر ، فتسيل المشاعر •• قوية • مدمرة ، لايطيق كبح جماحها فتمتليء عيونه بسائل ملحي شفاف سرعان ما يرفع أصابعه المعروقةليمسحه خشية أن يلحظه أحد ، ثم يخفي وجهه داخل راحتيه ويظل يحدق في ذرات التراب الناعمة من خلال الشقوق التي ترسمها أصابعه فوق وجهه المخبوء ••



الرصيف الميت يحمل فوق ظهره كل الاشياء المقذوفة • • تاهت عيونه لدقائق في كومة اللعب البلاستيكية الملونة ، والتي راح الصغار يتكومون حولها •• يحدقون فيها باشتهاء وحرقة ، وأمتدت يده المرتجفة لتلتقط واحدة منها •• خضراء ذات خطوط حمراء شفيفة ، سيارة صغيرة ذات اطارات أنيقة متحركة • • وابتسم ابتسامة غامضة وراحت أصابعه المعروقة تداعبها بلذة

خفية .. وتنهد من الاعماق .. دفع للبائع الذي كان يشق المكان بصراخه الهستيري .. ويحدق في وجوه المارة بشكل مثير !

*

يحس احساسا عميقا بالانهيار ويتمتم دون وعي :

ـ ماذا بعد ؟ . لاشيء ... مجرد محاولة للوقوف لا اكثر .. ثم سقوط مؤكد .. ونهائي !! الشمس تلوح من بعيد .. شاحبة . تغوص بتؤدة وراء أفق يمتد الى مالا نهاية .. يحس بالتعب يخدر عروقه ، يسري في كل جزء من جسده الذي مله .. يرتاح فوق أريكة متداعية ، محدقا في الوجوه بغباء .. كل شيء يبعث في أعماقه القرف واللامعنى ، حتى شراؤه للعبة البلاستيكية الملونة بداله عملية مضحكة ...

راح يحدق في قطعة البلاستيك الناعمة .. ويضحك بصمت .. ويهز رأسه ، ودون وعي يعصرها بقوة وهو يصر على أسنانه ويتمتم :

ـ ماذا بعد ؟ . لاشيء ... مجرد موت على الرصيف !.. لقد مللت .. وتعبت .. رغم أنني أتقطع شوقا لرؤيته .. ولو مرة واحدة .. وأخيرة .. فقط لأحتضنه .. لأعصر بقايا دمي المسفوح فوق تقاطيعه الصغيرة .. لأهمس في أذنيه الصغيرتين

كلمات قليلة ! .. لأعتذر فقط ! . رغم انه سوف لن يفهم شيئا .. ولربما لن يعرفني .. أو حتى يخاف مني .. ويبكي !! .. شيء لذيذ أن يحتضن الانسان ذاته بكل عنف حتى يموت ! يترك المقهى وأصابعه لاتزال تضغط على اللعبة الملونة الناعمة . عيونه تمتص وجوه الصغار بلهفة وحشية . الزقاق ضيق مظلم، رغم المصابيح الصفراء المحتضرة التي تبصق أضواءها الشاحبة بجمود آزلي . الظلمة تهبط ببطء شديد ، وتدب في أوصاله المتعبة حرارة لذيذة .. يرتاح لها .. فيبتسم !

يقف قرب باب خشبي متهرئ ، يزدحم عنده الاطفال وهم يلعبون ويصخبون ، وعلى مقربة منه يقف طفل في الرابعة من عمره .. جميل التقاطيع .. يبتسم ببراءة ، يحدق في وجهه ، شيء غريب .. لم يعد يصدقه ، فهو أول صغير يأكل تقاطيعه بهذا الشكل المثير منذ سنوات .. فوجهه لم يعد فيه ما يثير كائنا ما .. مجرد عبوس دائم ، وتقطيبة مقبضة .. ترى ماالذي يراه الطفل في وجهه .. حتى يبتسم له ؟ وفجأة يتذكر السبب . ويبتسم ابتسامة كبيرة .. وأصابعه تداعب اللعبة البلاستيكية بلطف ولأول مرة ! .. وتمتد يده الاخرى لتربت على ظهره برفق وحنان وهو يبتسم ، وبعد لحظات متوترة تقبع اللعبة الملونة في

يد الطفل الذي يمسكها بكل ما يملك من قوة ، ثم يندفع نحوه بعنف ليحتضنه ، ويطبع على وجهه المنفعل قبلة صغيرة تسري كتيار صاعق في جسده الخاوي .. ثم يتركه الصغير ويهرع نحو البيت وهو يكاد يطير من الفرح !

*

يجرجر قدميه المنهوكتين ببطء فوق ارض الزقاق الضيق ، ثم تلامس وجهه حفنة ناعمة من هواء رطب ينتعش له ويدمدم :

: ــ اوه .. من يدري .. ربما هو الصغير الذي أبحث عنه ؟ . فأنا لا أعرفه بالضبط .. لقد كدت أنسى ملامحه .. على أي حال .. فهو أيضا صغير .. شيء لذيذ جدا .. أن تخلق الفرح للصغار !

يعب حفنة أخرى من هواء رطب منعش يهب من طرف الشاطيء البعيد ، الظلمة تزداد قتامة ، وقبل ان ينهي الزقاق الطويل ليضيع في خضم الشارع المزدحم يتلفت الى الخلف للمرة الاخيرة ..

الصغار ــ مازالوا يصخبون ويلعبون ببراءة .. انه يحس احساسا عميقا وللمرة الاولى منذ أعوام طويلة من اليأس .. بأن هنالك أشياء جميلة ... في هذه الحياة .. رغم الحزن الدفين

الذي يمزقــه بصمت .. الاشياء تتضح اكثر فأكثر أمام عينيه اللتين يغشاهما ضباب كثيف من الضياع والخيبة وهو يغوص في الشارع الكثيف تدب في الاشياء حياة جديدة . يشعر بحمل ثقيل ينزاح عن صدره ، بعــد أن تتفجر بقايا الاحاسيس المخنوقة في داخله .. انه يصر على أسنانه بــكل ما يملك من قوة وعيناه تحدقان في الافق البعيد .. حيث تغوص الاشياء خلفه وتموت . يشعر بنفسه خفيفا جدا .. كبالون ملون .. وببطء غريب تسيل حبات كبيرة من دموعه الساخنة لتحرق وجنتيه بصمت وهو يسير نحو الافق .. يحاول ان يدركه ! ليغوص بعده ... في العدم !!

٢ — ٦ — ١٩٦٦م

فهرست

العنوان



العالم تفاهة ضخمة تعصر قلبه الذي
لايكاد يطيق ضرباته ، ضربة اثر أخرى أعنف .
اكثر امتلاء وانسانية . كل ضربه كدقة
ناقوس . احتجاج صامت حتى للاموات .
فلهم الحق فى أن يحتجوا بطريقتهم الخاصة !!

« شاحنة »

ما ألذ العوم ، فانه على الاقل يجعلني
خفيفا أتحرك بسهولة وسرعـة . ما أبشع
الجمود ، ما أفظع أن أكون صخرة تقبع فى
ركن مهمل ألف عام . دون احساس . دون
حركة ، ولو تافهة ، أنا أكره القعر . أريد أن
أعيش ألف عام . اريد أن أعوم .. أن أعوم !!

« الاخطبوط »

ليل طويل يزحف من وراء الافق . المسافرون يـ
يعد للاشياء وجود حقيقي ، فالصمت يسود كل شيء ..
انه يتضاءل حتى يغوص فى الفراغ .. البحر يجف تدريجـ
الى صحراء ملحية جافة . لقد اختفت جزيرتي ، بعد
منها . اين أنا ؟ .. قدماي تغوصان فى الملح ... كل
بعنف ووحشية !!

« حين يجف

مطبعة النعـ

الثمن ـ ١٥٠ فلس